المجلد الخامس عشر

هداية الذاكرين

إلى سير وسلوك العارفين

الفرقة الناجية

هي الأمة الإسلامية كلها

القطوف اليانعة

في الأدعية والصلوات النبوية النافعة

أوراد الأيام والليالي

لمحيي الدين ابن عربي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هداية الذاكرين

إلى سير وسلوك العارفين

الفرقة الناجية

هي الأمة الإسلامية كلها

القطوف اليانعة

في الأدعية والصلوات النبوية النافعة

أوراد الأيام والليالي

لمحيي الدين ابن عربي

بقلم

محمد عادل عزيزة الليالي

دكتوراه في الحديث الشريف

جامعة الأزهر

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي مهدي

المستشار برابطة العالم الإسلامي . مكة المكرمة

هداية الذاكرين

إلى سير وسلوك العارفين

بقلم

محمد عادل عزيزة اللبابيدي

دكتوراه في الحديث الشريف

جامعة الأزهر

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي مهدي

المستشار برابطة العالم الإسلامي . مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي في الله تعالى قارئ كتابي أعلى الله قدْرَكَ في الدارين.

رجاءً: اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في هذا الكتاب، وَأهْدِ ثوابَها إلى العلامة، العارف بالله تعالى، الوارث المحمدي، الزاهد، الورع، التقيّ، النقيّ، سيدي: الشيخ محمد أديب حسون، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة.

ثم إلى روح والديَّ الكريمين رحمهما الله تعالى رحمة واسعة يعجب لها أهل السموات والأرض، رحمة تبدل بها سيئاتهما حسنات، وتجمعهما الآن مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم سيد السادات، وتنزلهما بها عَلِيَّ المقامات، آمين.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، ويدفع عني وعن المسلمين نقمه، الحمد لله حمدًا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، القائل في محكم تنزيله:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

الحمدُ لله مُسَهِّلِ ما صَعُبَ من الأمور الكائنات، فاتحِ فاتحةِ الفتوح المُيَسَّرات، المُتَقَدِّسِ عن الحدوثِ والنقصانِ والآفاتِ، المُسْتَحِقِّ لكمالِ النعوتِ والصفات، المُسَبَّحِ بصنوفِ اللغاتِ، المحمودِ على جميعِ الأفعالِ والحالات، أحمده على ترادفِ نِعَمِهِ السائغات، وترادُفِ مِنَنِهِ السابغات، حمدًا دائمًا على مَرِّ الأوقات والساعات.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْفَرِدِ بِالدَّوَامِ، الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الأَيَّامِ، الْمُوجِدِ لِلْخَلْقِ بَعْدَ الْعَدَمِ، الْمُفْنِي لَهُمْ بَعْدَ أَنْ ثَبَتَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الصُّحُفِ، كَمَا جَرَى بِهِ الْقَلَمُ، الْعَالِمِ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ أَسْرَارُهُمْ فِي الْحَالِ وَفِي الْقِدَمِ.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على نُورِ الأنوارِ، وسرِّ الأسرارِ،

وتِرْياقِ الأَغْيَارِ، مفتاحِ بابِ اليَسَارِ، سيّدِنا مُحَمَّدٍ المُخْتارِ، النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الحبيبِ العالي القدرِ، العظيمِ الجاهِ، صاحبِ الوجهِ الأَنْوَرِ، والجاهِ الأَكْبَرِ، والحوضِ والكوثرِ، صلاةَ أهلِ السماواتِ والأَرَضِين عليه، عَدَدَ ما عندَ الله من العَدَدْ، في كلِّ لَمْحَةِ عينٍ مِنَ الأَزَلِ إلى الأَبَد، وصلاةً لا تُحصَى ولا تُحَدُّ ولا تُعَدُّ ولا تُرَدُّ، وصلاةً بِعَدَدِ حسناتِهِ كثيرة العَدَد، تُرضيك وتُرضيه وتَرْضى بها عنَّي وعن أحبابِي رضاءَ الأَبَد، وتكرِمُنَا بها بخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وتعيذُنا بها مِنْ كُلِّ شرٍّ فيهما، وتردُّ بها عنا شرَّ الكائدين، والماكرين، والحاسدين، والظالمين، وعلى آلِه الأطهارِ، وأصحابِهِ الأخيارِ، عدَدَ نِعَمِ اللهِ وأَفْضَالِهِ، وعدَدَ ما وَسِعَهُ عِلْمُ الله، صلاةً دائمةً بدوامِ مُلْكِ اللهْ. وعدَدَ كمالِ اللهِ وكما يليقُ بكمالِهِ، صلاةً تُعَطِّفُ اللهُمَّ بها قلبَهُ الشريفَ علينا، وتجمعنا بها معه ، يَقَظَةً ومنامًا، رُوْحًا وَجَسَدًا، في الدنيا قَبْلَ الآخرَةِ يا كريم.

أما بعد:

فإن الغاية من التصوف هي: معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولًا إلى حالةٍ وجدانيةٍ وذوقيةٍ بما يشبه الشهود، فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع، وكمال بشري سامٍ، ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هي: التوجه إلى الحقائق الإيمانية، والإحسانية، والعرفانيَّة، بالإقبال على ذكر الله تعالى، لهذا أردت أن أقدم كلمةً طيبةً موجزةً في بيان معنى السير، والسلوك والبيعة، والطريق،

والرياضة، والمجاهدة، والسَّفَر، وتعريفًا موجزًا بالطريقة النقشبندية وأورادها وبختميها.

كما ذكرت في هذه الرسالة إجازة الشيخ المبجل الجليل القطب الفرد سيدي محمد النبهان ﵁ لسيدي ومولاي العارف بالله تعالى الشيخ محمد أديب حسون ~.

وذكرت في هذه الرسالة أيضًا إجازة سيدي ومولاي العارف بالله تعالى الشيخ محمد أديب حسون للعبد الفقير كاتب هذه السطور.

كما تضمنت هذه الرسالة:

1- شرحًا لقصيدة ابن الميلق، والتي مطلعها: (من ذاق طعم شراب القوم يدريه) التي قام بشرحها سيدي ابن علان الصديقي الشلذلي ﵁.

2- وشرحًا لقصيدة عنوان التوفيق في آداب الطريق، لأبي مدين والتي مطلعها: (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا). والشرح لسيدي ابن علان الصديقي الشاذلي أيضاً.

3- وشرحًا آخر لقصيدة أبي مدين المتقدم ذكرها، لسيدي ابن عطاء الله السكندري ﵁، علماً أن شرح ابن علان لقصيدة: (ما لذة العيش...). مستفاد من شرح ابن عطاء الله السكندري، وأثبتُّ الشرحين تبركًا بالشارحَين.

4- وتخميسًا لقصيدة أبي مدين، لسيدي محيي الدين بن عربي ﵁ على قصيدة أبي مدين الآنفة الذكر.

واللهَ سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني وإخوتي القراء بما كتبت، وأن يجزي عني شيخي الذي رباني،

وعلمني، وأذاقني من مائدة كرمه بعضًا مما أفاض الله عليه من العلم بالله والمعرفة، سيدي ومولاي الشيخ محمد أديب حسون، قدس الله سره، وأعلى الله مقامه، والحمد لله رب العالمين. **خويدم المُهْدَى لهم العبد الفقير**

محمّد عادل عزيزة الكيّالي

التعريف بابن الميلق

جاء في الأعلام للزركلي (186/6): ابن بنت الميلق (731 ـ 797هـ = 1331 ـ 1395م) محمد بن عبد الدائم بن محمد، أبو المعالي، ناصر الدين، المعروف بابن بنت الميلق، ويختصر فيقال: ابن الميلق، قاضٍ مصري، كان شافعيًا شاذليًا، واعظًا بليغًا. ولاه الظاهر (برقوق) القضاء، وباشره بعفةٍ ونزاهةٍ مدة اثنتي عشرة سنة، وعزل بعد فتنة (منطاش) وأهين. **وانقطع عن الأعمال إلى أن توفي، من كتبه (حادي القلوب إلى لقاء المحبوب** ـ خ) تصوف، و(الأنوار اللائحة في أسرار الفاتحة ـ خ) و(جواب من استفهم عن اسم الله الأعظم ـ خ) و(قصيدة) مطلعها: (من ذاق طعم شراب القوم يدريه) شرحها ابن علان وطبعت مع الشرح.

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة: (12/2) محمد بن عبد **الدائم بن محمد بن سلامة، المصري، الشاذلي، المعروف بابن بنت** الميلق، القاضي ناصر الدين أبو المعالي، ولد سنة 31 وسمع من بعض أصحاب أبي نعيم بن الأسعردي، وأحمد بن كشتغدي، وعائشة بنت الصنهاجي، وغيرهم من أصحاب النجيب، واشتغل وحضر دروس ابن عدلان، والشهاب الأنصاري، والشهاب البلبيسي، وأخذ عن بهاء الدين بن عقيل، ولم تكن له همة في الفقه، وإنما كان يتعاطى الوعظ، وعمل المواعيد على طريق الشاذلية، فنفق سوقه، وكان ذكيًا يحسن النظم والنثر

والخطب لبلاغة كانت فيه، ومهر في الأدب، وكثر أتباعه بسبب الوعظ، وعظم صيته، وأدخله ابن جماعة في الفقهاء، وولاه تدريسًا، وتقرر في خطابة مدرسة الناصر حسن، ثم ولاه الملك الظاهر برقوق القضاء، فباشره بعفة ونزاهة وحرمة، بعد أن شرط شروطًا، فلما كانت فتنة منطاش، عزل بعد أن كتب في الفتاوى المتعلقة ببرقوق، فلما عاد مقته وسلط عليه من آذاه فأُحْضِرَ مجلس حكمه بالقلعة، فأهين وألزم ببذل مال جليل، فباع فيه بستانه، وانقطع خاملًا إلى أن مات بمنزله،في جمادى الآخرة سنة 797 وكانت ولايته في شعبان سنة 789.

وجاء في معجم الشعراء العرب (115/1): ابن بنت الميلق (731 – 797هـ = 1331 ـ 1395م) محمد بن عبد الدائم بن محمد، أبو المعالي، ناصر الدين المعروف بابن بنت الميلق، ويختصر فيقال: ابن الميلق: هو قاض مصري، كان شافعيًا شاذليًا، واعظًا بليغًا، ولاه الظاهر برقوق القضاء، وباشره بعفة ونزاهة مدة اثنتي عشرة سنة، وعزل بعد فتنة (منطاش) وأهين، وانقطع عن الأعمال إلى أن توفي.

من كتبه: (حادي القلوب إلى لقاء المحبوب ـ خ) تصوف، و(الأنوار اللائحة في أسرار الفاتحة ـ خ)، و(جواب من استفهم عن اسم الله الأعظم ـ خ)، و(قصيدة) مطلعها: (من ذاق طعم شراب القوم يدريه) شرحها ابن علان.

وجاء في معجم المؤلفين(131/10): محمد بن عبد الدائم بن محمد ابن سلامة الشاذلي، الشافعي، المصري، الشهير بابن بنت الميلق (أبو

المعالي، ناصر الدين) صوفي، واعظ، من القضاة بمصر. ولاه الظاهر برقوق القضاء، وعزل بعد فتنة منطاش وأهين، وانقطع عن الأعمال إلى أن توفي.

من آثاره: حادي القلوب إلى لقاء المحبوب، جواب من استفهم عن اسم الله الأعظم، الوجوه المسفرة عن تيسير أسباب المغفرة، رسالة في أسماء النبي عليه السلام، لخص فيها كتاب ابن دحية المسمى بالمستوفى، وحال السلوك.

** ** **

التعريف بابن علان الصديقي الشاذلي

التعريف بابن علان شارح قصيدة (مَنْ ذَاقَ)

جاء في الأعلام للزركلي: ابن علان (996 ـ 1057هـ = 1588 ـ 1647م) محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، مفسر، عالم بالحديث، من أهل مكة، له مصنفات ورسائل كثيرة، منها (ضياء السبيل) في التفسير، و(الطيف الطائف بتاريخ وج والطائف ـ خ) في مكتبة الحرم المكي (الرقم 120)، و(شرح قصيدة ابن الميلق وقصيدة أبي مدين ـ ط) و(الفتح المستجاد لبغداد) و(المنهل العذب المفرد في الفتح العثماني لمصر ومن ولي نيابة ذلك البلد) وثلاثة تواريخ في (بناء الكعبة) و(دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ـ ط) ثمانية أجزاء، في شرح (رياض الصالحين) للنووي، و(المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية ـ خ) في التصوف، و(التلطف في الوصول إلى التعرف ـ خ) في الأصول، و(الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ـ ط) و(رفع الخصائص ـ خ) و(مثير شوق الأنام إلى حج بيت الله الحرام ـ خ) و(إتحاف الفاضل بالفعل المبني لغير الفاعل ـ ط).

وجاء في هداية العارفين (600/1): ابن علان المكي: محمد علي ابن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان بن عبد الملك بن علي بن مباركشاه البكري الصديقي المكي، الشافعي، ولد بمكة سنة 996 وتوفي بها سنة 1057 سبع وخمسين وألف. صنف من الكتب الابتهاج في ختم

المنهاج، إتحاف أهل الإسلام والإيمان ببيان أن المصطفى ﷺ لا يخلو عنه زمان، إتحاف الثقات في الموافقات، أسنى المواهب والفتوح بعمارة المقام الإبراهيمي وباب الكعبة وسقفها والسطوح، إعلام الإخوان بتحريم الدخان، إعلام سائر الأنام بقضية السيل الذي سقط منه بيت الله الحرام، الأقوال المعرفة بفضائل أعمال عرفة، أنباء المؤيد الخليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد، بديع المعاني في شرح عقيدة الشيباني، بغية الظرفاء في معرفة الردفاء، البيان والإعلام في توجيه فرضية عمارة الساقط من البيت لسلطان الإسلام، البيان ونهاية التبيان في تاريخ آل عثمان، تحفة ذوي الإدراك في المنع من التنباك، جمع اللطائف في محاسن الطائف، خاتم الفتوة في خاتم النبوة، حسن العناية في شرح الكفاية أعني تصريف البركوي، حسن النبا في فضل قبا، دار القلائد فيما يتعلق بزمزم وسقاية العباس من الفوائد، دليل الفالحين في شرح رياض الصالحين للنووي، رشف الرحيق من شرب الصديق، رفع الالتباس بيان اشتراك معاني الفاتحة وسورة الناس، رفع الخصائص عند طلاب الخصائص، روضة الصفا في آداب زيارة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، زهر الربا في فضل مسجد قبا، شمس الآفاق فيما للمصطفى ﷺ من كرم الأخلاق، ضياء السبيل إلى معالم التنزيل في تفسير القرآن، طيف الطائف بتاريخ وج والطائف، العقد الثمين في نظم أم البراهين، العقد الوفي في نظم عقيدة النسفي، العلم المفرد في فضل الحجر الأسود، عيون الإفادة في أحرف الزيادة، فتح الفتاح في شرح الإيضاح أعني منسك النووي، فتح القدير في الأعمال التي يحتاج إليها من حصل له بالملك على البيت ولاية

التعمير، فتح الكريم الفتاح في حكم ما سد به البيت من حصر وأعود وألواح، فتح الكريم القادر ببيان ما يتعلق بعاشوراء من الفضائل والأعمال والمآثر، فتح المالك في تجويز طريق ابن مالك، فتح المستجاد لبغداد، فتح الوهاب بنظم رسالة الآداب، الفتوحات الربانية في شرح الأذكار النووية، القول الحق والنقل الصريح بجواز أن يدرس بجوف الكعبة الحديث الصحيح، مثير شوق الأنام إلى **حج بيت الله الحرام، مفتاح البلاد في فضائل الغزو والجهاد، المنح** الأحمدية بتقريب معاني الهمزية، منهج من ألف فيما يرسم بالياء ويرسم بالألف، المنهل العذب المفرد في الفتح العثماني لمصر، ومن ولي نيابة تلك البلد، المواهب الفتحية في الطريقة المحمدية، مورد الصفا في مولد المصطفى **صلى الله عليه وآله وسلم، نشر ألوية التشريف بالأعلام، والتعريف بمن له** ولاية عمارة ما سقط عن بيت الشريف، النفحات الأحدية تصدير وتعجيز الكواكب الدرية، النفحات الأريجة في متعلقات بيت أم المؤمنين خديجة، النفحات العنبرية في مدح خير البرية، الوجه الصبيح في ختم الصحيح، وغير ذلك.

وجاء في خلاصة الأثر (42/3): محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان بن عبد الملك بن علي مجدد المئة الثامنة كما هو مشهور على الألسنة والأفواه، الشيخ المحقق الطيبي، والخطيب التبريزي، صاحب المشكاة، علي بن مبارك شاه البكري الصديق العلوي، سبط آل الحسن، الشافعي، وتقدم نسبهم في ترجمة عمه الشيخ أحمد بن إبراهيم منظومًا فلا حاجة إلى إعادته. وصاحب الترجمة هو واحد الدهر

في الفضائل، مفسر كتاب الله تعالى، ومحي السنة بالديار الحجازية، ومقرئ كتاب صحيح البخاري من أوله إلى آخره، في جوف كعبة الله، أحد العلماء المفسرين، والأئمة المحدثين، عالم الربع المعمور، صاحب التصانيف الشهيرة، كان مرجعًا لأهل عصره في المسائل المشكلة في جميع الفنون، وكان إذا سئل عن مسألة ألف بسرعة رسالة في الجواب عنها، ولد بمكة، ونشأ بها، وحفظ القرآن بالقراءات، وحفظ عدة متون في كثير من الفنون، وأخذ النحو عن الشيخ عبد الرحيم بن حسان، قرأ عليه شرح الآجرومية للأزهري، وشرح القواعد له، وشرح ألفية ابن مالك للسيوطي. وعن الشيخ عبد الملك العصامي قرأ عليه شرح القطر للمصنف، وشرح الشذور للمصنف، وأخذ عنه علم العروض والمعاني والبيان، وأخذ القراءات والحديث والفقه والتصوف، عن عمه الإمام العارف بالله تعالى أحمد ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ وعن المحدث الكبير محمد بن محمد بن جار الله بن فهد الهاشمي، والسيد عمر بن عبد الرحيم البصري، والصدر السعيد كمال الإسلام عبيد الله الخجندي. وروى صحيح البخاري، وغيره من كتب السنن إجازة عن كثير من الشيوخ الوافدين إلى مكة، كالشيخ العارف بالله تعالى الولي جلال الدين عبد الرحمن بن محمد الشربيني، العثماني، الشافعي، وعن العلاء الحسن البوريني الدمشقي، وعن مفتي الحنفية بمصر الشيخ عبد الله النحرواي، وعن محدث مصر محمد حجازي الواعظ، إجازة منه في سنة عشرين وألف. وتصدر للإقراء وله من السن ثمانية عشر عامًا، وباشر الإفتاء وله من السن أربع وعشرون سنة، وجمع بين الرواية والدراية، والعلم والعمل، وكان إمامًا ثقة، من أفراد أهل زمانه، معرفةً وحفظًا، وإتقانًا وضبطًا، لحديث

رسول الله ﷺ وعلمًا بعلله وصحيحه وأسانيده.

وكان شبيهًا بجلال السيوطي في معرفة الحديث، وضبطه، وكثرة مؤلفاته، ورسائله. قال الشيخ عبد الرحمن الخياري: إنه سيوطي زمانه. وحكى تلميذه الفاضل محمد النبلاوي الدمياطي نقلًا عنه أنه قال: رؤي النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو يعطي الناس عطايا، فقيل له: يا رسول الله، وابن علان؟ فأخذ يحثو له بيده الشريفة حثيات. وقال المترجم أيضًا: أخبرني بعض الصالحين عن بعضهم في عام سبع وثلاثين وألف، أنه رأى النبي ﷺ في المنام ليلة السادس والعشرين من رجب على ناقته عند الحجون سائرًا إلى مكة فقبل يده الشريفة الكريمة، وقال: يا سيد المرسلين يا رسول الله، الناس قصدوا حضرتك الشريفة للزيارة، فلماذا وصلت؟ قال: لختم صحيح البخاري، أو لختم ابن علان. شك من الرائي. ثم يوم الختم الثامن والعشرين من رجب، ذلك العام حضر بعض الصالحين، فحصلت له واقعة، رأى خيمة خضراء ما بين السماء والأرض، فسأل؛ فقيل: هذا النبي ﷺ حضر لختم البخاري.

وكان حسن الخط، كثير الضبط، وانتصب للتدريس ونفع الناس فأخذ عنه جماعة كثيرون يطول شرحهم. وقرأ صحيح البخاري في جوف الكعبة أيام بنائها لما انهدمت في سنة تسع وثلاثين من جهة الحطيم، وكان سبب هدمها مجيء السيل الآتي بيانه في هذه الترجمة وكان اتفق له أنه قارب ختم الصحيح، وكان البناؤون قد جعلوا لهم سترًا حال التعمير، فخطر له أن يدخله ويختم فيه ويشرب فيه القهوة، ففعل، فوشي من بعض أعدائه إلى الشريف، وقالوا: إنه قد جعل بيت الله حانة للقهوة، فأغضبوا الشريف

عليه فأرسل في الحال فأحضره وحبسه وأراد أن يوقع به أمرًا. فأخذ يتلو القرآن ويتوسل إلى الله تعالى بنبيه أن يكشف عنه هذا الكرب، فاتفق أن الشريف كان قد قام إلى صلاة المغرب وهو بقصره، فاهتزت أركان القصر، وظن السامعون أنها زلزلة وقعت، فنادى الشريف وزيره وسأله عن الأمر، فأجابه: إنها كرامة للشيخ ابن علان، فلما سمع مقالته؛ قال له: كيف يكون حالنا معه وقد فعلنا به هذه الفعلة؟ فقال: السبيل إلى أخذ خاطره إطلاقه الساعة، فناداه إليه واستعفاه مما فعله به وأنعم عليه، فاعتذر ابن علان أن ما وقع منه كان هفوة، فلما كان عند الصباح وجده أعداؤه طائفًا بالبيت، وكانوا يظنون غير ذلك. وصنف في جواز التدريس داخل البيت مصنفًا حافلًا أطنب فيه المقال، في هذا المقام، وجمع فيه الأقوال في هذا المرام، وسماه القول الحق والنقل الصريح بجواز أن يدرس بجوف الكعبة الحديث الصحيح، وألف كتبًا كثيرةً في عدة فنون تزيد على الستين. وتآليفه كلها غُرر فمنها التفسير سماه «ضياء السبيل إلى معالم التنزيل» وله «رفع الالتباس ببيان اشتراك معاني الفاتحة وسورة الناس» وله رسالة في ختم البخاري سماها «الوجه الصبيح في ختم الصحيح» وله «فتح الكريم القادر ببيان ما يتعلق بعاشوراء من الفضائل والأعمال والمآثر» ونظم أنموذج اللبيب للسيوطي وشرحه شرحًا عظيمًا، ونظم أم البراهين سماها «العقد الثمين» ونظم عقيدة النسفي سماها «العقد الوفي» ونظم «مختصر المنار في أصول الحنفية» و«نظم إيساغوجي والعقد والمدخل في علم البلاغة للعضد» وله «فتح الوهاب بنظم رسالة الآداب» للعضد وله «شرح على تصريف الشيخ محمد البركلي» المسمى بالكفاية سماه «حسن العناية بالكفاية» و«شرح الأذكار» للنووي، و«رياض الصالحين»، وله «درر القلائد

فيما يتعلق بزمزم وسقاية العباس من الفوائد» وشرح منسك النووي الكبير سماه: «فتح الفتاح في شرح الإيضاح» و«شرح منظومة السيوطي في موافقة عمر رضي الله عنه للقرآن» وله مؤلف في رجال الأربعين النووية، ومؤلفان في التنباك، أحدهما يسمى «تحفة ذوي الإدراك في المنع من التنباك» والآخر «إعلام الإخوان بتحريم الدخان» و«الابتهاج في ختم المنهاج» و«نظم القطر» و«الآجرومية وحاشية على شرحها للشيخ خالد الأزهري» و«رشف الرحيق من شرب الصديق» وله مؤلف في أجداده إلى الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه. ومؤلف فيمن اسمه زيد، و«حسن النبا في فضل قبا» اختصره من جواهر الأنباء للشيخ إبراهيم الوصابي اليمني. و«زهر الربا في فضل مسجد قبا» و«النفحات الأحدية تصدير وتعجيز الكواكب الدرية»: (أمن تذكر جيران بذي سلم). و«العلم المفرد في فضل الحجر الأسود» وله «إتحاف أهل الإسلام والإيمان، بيان أن المصطفى ﷺ لا يخلو عنه زمان ولا مكان» و«شمس الآفاق فيما للمصطفى ﷺ من كرم الأخلاق» و«خاتم الفتوة في خاتم النبوة» و«الطيف الطائف بتاريخ وج والطائف» ومؤلف فيمن أردفهم رسول الله ﷺ معه على مركوبه، سماه، «بغية الظرفا في معرفة الردفا» وبلغوا فوق الأربعين. وله «المنح الأحدية بتقريب معاني الهمزية» و«شرح قلادة العقيان بشعب الإيمان» للشيخ إبراهيم بن حسن مفتي ديار الشرق، و«الأقوال المعرفة بفضائل أعمال عرفة» وكتاب «الفتح المستجاد لبغداد» و«منهج من ألف **فيما يرسم بالياء ويرسم بالألف**< و>**مورد الصفا في مولد المصطفى** ﷺ» و«النفحات العنبرية في مدح خير البرية» و«عيون الإفادة في أحرف الزيادة» و«شرح منظومة ابن الشحنة في المعاني والبيان» و«شرح الزبد» وله «المنهل العذب المفرد في

الفتح العثماني لمصر، ومن ولي نيابة تلك البلد» وله ثلاثة تواريخ في بناء الكعبة، أحدها ألفه برسم خزانة السلطان مراد، وسماه باسمه وفيه تاريخ عام عمارته هو «أنباء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهَّاب الجوَاد» وأرسله إلى السلطان صحبة المشير بتأليفه السيد محمد الأنقروي وسأله أن يعين له من الصدقات والجرايات ما يقوم بالكفاية وأن يجدد له درسًا لتفسير الكتاب الكريم، ولحديث المصطفى ﷺ، فما أجدت.

وله رسالة في تعريف واجب الاستثناء وجائزه سماها «فتح المالك في تجويز طريق ابن مالك» وله مؤلف في السيل المقدم ذكره آنفًا سماه «إعلام سائر الأنام بقصة السيل الذي سقط منه بيت الله الحرام» ثم لخص منه مجرد ما وقع في عمارة البيت، وأعرض عما في أصله، مما زاد عن بيان أعمال تلك الكرة من أحوال عمارته العشرة، وما يتعلق بها من الأحكام وجعل هذا المختصر باسم خزانة السلطان مراد، وله مؤلف في ذلك أيضًا سماه «نشر ألوية التشريف، بالإعلام والتعريف، بمن له ولاية عمارة ما سقط من البيت الشريف» سببه أن البيت العتيق لما سقط، سأل الشريف مسعود صاحب مكة، إذ ذاك العلماء عن حكم عمارته، فأجابوا: بأنه فرض كفاية على سائر المسلمين، ولشريف مكة تعاطي ذلك وأن يعمره، وأنه من القناديل التي لم يعلم أنها عينت من واقفها لعين العمارة ووافقهم صاحب الترجمة أولًا، ثم ظهر له أن هذا العمل لا يتوجه إلا من السلطان الأعظم، وتوقف معظم العلماء عن موافقته، فألف المؤلف المذكور، ثم بلغه توقفهم عن دليله في ذلك، فألف مؤلفًا آخر سماه «البيان والإعلام في توجيه فرضية عمارة الساقط من البيت لسلطان الإسلام» وله «فتح الكريم الفتاح في حكم ما سد به البيت من حصر وأعواد وألواح» قال: ألفته

صبيحة يوم الاثنين، سلخ رمضان إلى ضحوة نهار، وكنت في عصر ذلك اليوم نسخته لرئيس المعلمين، علي بن شمس الدين، وبين فيه عملهم أتم بيان. وله رسالة في الأعمال التي يحتاجها النائب عن العمارة سماها «فتح القدير في الأعمال التي يحتاج إليها من حصل له بالملك على البيت ولاية التعمير» وله رسالة سمّاها «سنا المواهب والفتوح بعمارة المقام الإبراهيمي وباب الكعبة وسقفها والسطوح» وله رسالة في حجر إسماعيل، وكتاب «النفحات الأريجة في متعلقات بيت أم المؤمنين خديجة» وسارت بتآليفه الركبان، واشتهرت بالآفاق، وله النظم الفائق فمنه قوله في بئر زمزم:

وزمزم قالوا فيه بعض ملوحة ... ومنه مياه العين أحلى وأملح
فقلت لهم: قلبي يراها ملاحة ... فلا برحت تحلو لقلبي وتملح

وقوله:

يا رب أنت حبست الحسن في قمر ... حلو الشمائل لا يرثي لمن عشقه
أكاد أدعو عليه حين يهجرني ... لكن لفرط غرامي تمنع الشفقه

وقوله:

يا مالكًا رق قلبي ... رفقًا بنفس رقيقك
الله بيني وبين السو ... اك في رشف ريقك

وقوله:

يا من يلم في هواه ... ولا يراعي الجمالا
بالله دعني فإني ... لقد فنيت انتحالا

وقوله:

كتبتـه ولهيـب الشـوق فـي كبـدي والـدمع منسـكب والبـال مشـغول
وقلت: قد غاب من أهواه وا أسفي بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول

ومن إملائه لنفسه قوله في عقد الحديث:

إذا أمسـيت فابتـدر الصـياحا ولا تمهلـه تنتظـر الصـباحا
وتـب ممـا جنيـت فكـم أناسًـا قضـوا نحبًـا وقـد نـاموا صـحاحا

وله أشعار كثيرة، منها تشطير الهمزية، وتخميسها، وخمس قصيدة الشيخ أبي مدين ـ قدس الله سره ـ وذيلها وأنشد له بعضهم هذه الأبيات:

المـوت بحـر موجـه طـافح يغـرق فيـه المـاهر السـابح
ويحـك يـا نفـس اسـمعي مقالـةً قـد قالهـا ناصـح
مـا ينفـع الإنسـان فـي قبـره إلا التقـى والعمـل الصـالح

وعلى كل حال ففضله وشرف قدره، مما شاع وذاع، وملأ الدنيا والأسماع، قال البوريني في تاريخه: كانت ولادته في العشرين من صفر سنة ست وتسعين وتسعمائة، وتوفي نهار الثلاثاء لتسع بقين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وألف، ودفن بالمعلاة، بالقرب من قبر شيخ الإسلام ابن حجر المكي، رحمهما الله تعالى.

** ** **

وَقَفَاتٌ مُهِمَّة

مع

السلوك والسير والطريق والبيعة والمجاهدة والسَّفَر

أولاً: السلوك:

المقصود من السلوك تزكية النفس وحملها على الأخلاق الكاملة، وإيصالها إلى الإيمان الذوقي والتوحيد الخالص، ولفظ السلوك قد يطلق على المعنى المذكور، وقد يطلق على تبديل الصفات وتحصيل المقامات، وهو المقصود من السلوك بالإطلاق الأول.

وغاية السلوك تهذيب النفوس ونقلها من مرتبة إلى أخرى أعلى منها، فمن النفس الأمّارة، إلى اللوّامة، إلى المطمئنة، إلى الملهَمة، إلى الراضية، إلى المرضية، إلى الكاملة.

وهذه بعض التعريفات لأرباب الشأن والقدم الراسخة في التصوف في معنى السلوك:

قال الغزالي في تذكرة المريد لطالب المزيد: السلوك: هو الدخول تحت تصرف ولي كامل الذات والصفات، ليربيه تربيةً تليق بحاله، ويرقيه مرتبةً بعد أخرى إلى أن يوصله إلى التوحيد الخالص، فحينئذٍ يتولاه الله تعالى فيستغني عن الخلق.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة «السير والطير»:

السلوك: هو التحقق بالإيمان.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي في >رد المتشابه إلى المحكم<: السلوك: هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف، وذلك بالاشتغال بعمارة الظاهر والباطن، والعبد في ذلك مشغول بنفسه عن ربّه، إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول.

وقال الشيخ كمال الدين القاشاني في لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام: السلوك في اصطلاح الطائفة: هو عبارة عن الترقي في مقامات القرب إلى حضرات الربّ تعالى شأنه فعلًا وحالًا، وذلك: بأن يتحد باطن الإنسان وظاهره فيما هو بصدده، مما يتكلفه من فنون المجاهدات، وما يقاسيه من مشاقِّ المكابدات، بحيث لا يجد في نفسه حرجًا من ذلك.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي في «شرح الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار»: السلوك: هو عبارة عن الانتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع بطريق القربة إلى الله تعالى، إلى عمل مشروع بطريق القربة إلى الله تعالى، بفعل وترك، فمن فعل إلى فعل، ومن ترك إلى ترك، أو من فعل إلى ترك، أو من ترك إلى فعل، وما ثم خامس للصورة، وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام، ومن اسم إلى اسم، ومن تجلٍّ إلى تجلٍّ، ومن نفس إلى نفس، والمنتقل هو السالك.

وقال أيضا: السلوك إلى الله تعالى: هو عبارة عن رفع التعينات القلبية والنفسية والروحية والسرية والحقية، وهو عبارة عن حركة في الكيف.

وقال الشيخ أحمد السرهندي في >مكتوبات الإمام الرباني<: السلوك: هو السير الآفاقي.

وقال الشيخ عبد الله خورد في >بحر الحقائق<: السلوك: هو غاية الفناء في الاسم الذي هو مبدأ تعين صاحب السلوك، وهو التجلي الذاتي بالنسبة إليه، ثم إذا انتهى أمره بعد هذا السلوك إلى الجذبة الحاصلة في طريق الوجه الخاص كان سالكًا مجذوبًا، كما أن صاحب الجذبة الحاصلة في الوجه الخاص، إذا سلك وانتهى إلى الاسم كان مجذوبًا سالكًا، وهما شيخان كاملان مكملان، وأما السالك المنتهي والمجذوب المحض فهما واصلان لا موصلان.

ويقول الشيخ قطب الدين البكري الدمشقي في كتابه الرسالة المكية في الطريقة السنية: السلوك: هو عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعدوا للوصول.

وقال الشيخ ولي الله الدهلوي في كتابه >التفهيمات الإلهية<: السلوك: هو أن يغلب حكم لطيفة على لطيفة أخرى.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة في >الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية<: السلوك: هو سير المريدين.

وقال الشيخ عبد الله الخضري في شرح مكتوبات الشيخ عبد القادر الكيلاني: السلوك: هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف، وذلك اشتغالٌ بعمارة الظاهر والباطن.

وقال الشيخ محمد مهدي الرواس في >رفرف العناية<: السلوك للأبواب: لفتة عن الأغيار، ووقفة في الدار، ولهفة في الديار، واتِّبَاع الآثار، والاستقامة الكاملة من غير فرار.

وقال الشيخ أحمد النقشبندي في جامع الأصول في الأولياء. السلوك: هو أفضل العبادات، وهو ما يوصل إلى الله.

وقال الدكتور عبد المنعم الحفني في >معجم مصطلحات الصوفية<: السلوك: هو تهذيب الأخلاق ليستعد العبد للوصول، بتطهير نفسه عن الأخلاق الذميمة، مثل حب الدنيا والجاه، ومثل

الحقد والحسد والكبر والبخل والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم ونحوها من المعاصي، وبالنهج على الأخلاق الحميدة، مثل العلم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها.

وقال الشيخ عبد الله بن علوي في كنز البراهين الكسبية والأسرار الوهبية الغيبية: لا يتم السلوك إلا بالزهد، ولا يتمّ الزهد إلا برفض الدنيا، والإعراض عن الشهوات، والإقبال على الله.

مراتب السلوك:

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام المقدسي في حل الرموز ومفاتيح الكنوز: مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان.

وقال الشيخ عبد الله الخضري في شرح مكتوبات الشيخ عبد القادر الكيلاني: للسالك مرتبتان: مرتبة كونه محبًا وعاشقًا؛ ومرتبة كونه محبوبًا ومعشوقًا.

فالنفس في المرتبة الأولى تسمى: راضية، وفي الثانية: مرضية.

فالسالك في الأولى: راضٍ بقضائه، شاكرٌ على نعمائه، ما يرى فعلًا من المخلوقات وما يبالي بالمصنوعات.

وفي الثانية: يفني الله محبة العبد، فيظهر فيه المحبوبية والمطلوبية والمعشوقية ظهورًا لا خفاء فيه بعدها أبدًا.

فبعدَما كان عارفًا يصير معروفًا، وبعدما كان طالبًا وعاشقًا يصير مطلوبًا ومعشوقًا.

وقال الشيخ عبد اللطيف المقري القرشي في «تحفة واهب المواهب في بيان المقامات والمراتب»: **للسلوك ست رتب:**

الرتبة الأولى: عتق من رق القلب.

والرتبة الثانية: السير الدائم إلى جناب الربّ.

والرتبة الثالثة: ظهور الأضداد في الوجود.

والرتبة الرابعة: الاستغراق في بحر الشهود.

والرتبة الخامسة: التحقق بحقائق الكمال.

والرتبة السادسة: التحقق بالصبر في كمال الوصال.

والخلاصة: أن السلوك هو عبارة عن تزكية النفس الأمارة وتطهيرها، حتى تتيسر النجاة من عبادة الآلهة الباطلة الناشئة عن الهوى النفساني، ولا تبقى قبلة التوجه في الحقيقة لغير المعبود الواحد الحقيقي تعالى وتقدس، ونجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتصنع وأمثالها من الرذائل، وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة وأهم نتيجة لها، وكذا التخلص من أخطار النفس الأمارة بالسوء، ومن أدران الأنانية، بتزكية النفس التي هي السلوك العملي في الطريقة.

مراتب النفس ومقاماتها:

وللنفس مراتب سبع: النفس الأمّارة، واللوّامة، والمطمئنة، والملهمة، والراضية، والمرضية، والكاملة.

وهذه الأسماء المتعددة إنما هي لمسمى واحد لا تعدد فيها، وإنما

تعددت أسماؤها ـ أي الروح ـ لتعدد مراتبها. وبيان ذلك: أن الله تبارك وتعالى خلق الروح الإنساني من صفاء صفوة النور الإلهي، وأنشأها من فيض غيب الغيوب الرباني، وأسكنها محل الروح، لم تزل فيه كاملة المعرفة بالله تعالى، مستقرة في محبته ووحدانيته، عارفة بأسمائه وصفاته، لا تلتفت لغيره، ولا تبالي بسواه.

وتكون في الجسد بحسب الروح نفس، وهي البخار اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة والإدراك، فالنفس شيء يوجد حكمه ولا توجد عينه، إذ هو يتكون من اجتماع الروح والجسد، وهذا الشيء المعبر عنه بالنفس الأمّارة: هو منبع الأخلاق الذميمة، والأوصاف الفاسدة السقيمة، ما دام حكمه مستوليًا على العبد، فما دامت الروح ميَّالة إلى المعاصي والمخالفات ومتابعة الهوى، تسمى في هذا المقام: النفس الأمّارة بالسوء.

فإذا طرأ عليها من الأنوار الإلّهية ما يخرجها عن بعض ما كانت متصفة به، من المعاصي والمخالفات بوجود التوبة، أخذت في توبيخ نفسها ولومها لذاتها، تسمى النفس اللوّامة.

ثم إذا أفاض عليها من الأنوار الإلّهية، ورسخت قدمها في العمل لطاعة الله والتوجه إليه سكن اضطرابها من ذلك، تسمى في ذلك المقام: النفس المطمئنة، لكنها بقيت على بقيةٍ من الميل لغير الله، وإن كان حلالًا، وبقي فيها أثر من الاعوجاج عن الاستقامة، وبقي فيها ضرب من التدبير والاختيار في مصالحها.

ثم إذا أفاض عليها من الأنوار الإلّهية ما يقضي بهدم أبنيتها وجميع اختياراتها ومألوفاتها، بالرجوع إلى الله تعالى عارية عن كل ما سواه، فهي في هذا المقام تسمى: النفس الراضية.

ثم إذا أفاض عليها من أنوار حضرة القدس ما يقضي بكمال طهارتها من آثار الأوهام وبخورات المحسوسات، انمحق وجودها وانعدم شهودها، وهذا الفيض هو النور الأكبر، المعبر عنه في اصطلاح العارفين: بالفتح الأعظم، فهي تسمى في هذا المقام: بالنفس المرضية.

إلا أنها انعدم منها الحس والإدراك، فهذا هو المعبر عنه، بفناء الفناء، فإذا أفاض عليها من أنوار حضرة القدس، ما يقضي لها بتمييز المراتب وتفصيلها، ومعرفة خواصها واستحقاقها وإحاطتها لمقتضيات المراتب ولوازمها جملةً وتفصيلًا، تسمى في هذا المقام: النفس الكاملة.

النفس والمفتاح والوارد:

ولكل مرتبة من مراتب هذه النفوس السبع: نفس، ومفتاح، وواردٍ.

فيقال للنفس في مرتبة السير (إلى الله): النفس الأمّارة بالسوء، ولا تصلح إلا بورود الشريعة عليها، ومفتاح الشريعة كلمة التوحيد، فإذا أخذ السالك هذا المفتاح من تلقين الشيخ الكامل الذي هو حقه، واشتغل بالذكر بإذن الشيخ، وثبتت الشريعة على الوجه المسنون، تقوَّى بها على إهلاك العدو الذي هو النفس.

ثم إذا حصل له الترقي إلى السير (لله) تسمى النفس في هذه المرتبة الثانية: النفس اللوَّامة، ولا بد من إماتتها أيضًا فلا تفنى

إلا بالطريقة، ثم إذا حصل الترقي إلى السير (على الله)، يعطى له مفتاح ليميت النفس الملهمة: التي هي نفس تلك المرتبة الثالثة. ولا بد من إماتتها أيضًا، فلا تفنى إلا بالمعرفة، والمراد من المعرفة ههنا معرفة الله العيانية.

ثم إذا تخلص منها بتوفيق الله تعالى وتعليم الشيخ المبارك، وترقى إلى السير (مع الله) يعطى له مفتاحه ليميت النفس المطمئنة: التي هي نفس هذه المرتبة الرابعة. ولا تموت هذه إلا بالحقيقة، فإذا حصلت له الحقيقة، وتجلت له صفات الله تعالى القديمة، يحصل له التوحيد في الصفات، فإذا شاهد الصفات القديمة وسترت عليه الصفات الحادثة يجهل نفسه ووصفه، ثم إذا تخلص منها وترقى إلى السير (في الله) يعطى مفتاحه حتى يميت النفس الراضية: التي هي نفس هذه المرتبة الخامسة. ولا تفنى هذه النفس إلا بحقيقة الحقائق، التي هي تجلي ذات الله تعالى، وعن هذا التجلي يكون أعمى، ولهذا يقال لهذا المقام: مقام العمى، ويسمى هذا المقام بالفناء الكلي، والفعلي، والوضعي، والذاتي، فإذا استقر العارف في هذه المرتبة الخامسة، ولم يرجع إلى الكثرة يكون من الواصلين المقبولين، ولم يكن مرشدًا مفيدًا للطالب. ثم إذا رد من الوحدة إلى الكثرة وترقى إلى السير (عن الله) يعطى له مفتاحه، ليميت النفس المرضية: التي هي نفس تلك المرتبة السادسة. يقال لهذه المرتبة: مقام الحيرة، لتحير العارف فيها عن مشاهدة ما شاهده من الوحدة، لكونه محجوبًا عنه، فيحتاج إلى الاستدلال من المصنوع إلى الصانع، كسائر المحتجبين، فلا بد من إماتة هذه النفس حتى تزول الحيرة.

فإذا ترقى إلى السير (بالله)، وأخذ مفتاحه وشاهد الوحدة

مرة أخرى، وحصل له الفناء، وفي الفناء زالت الحيرة، وحصلت له النفس الكاملة، فكان العارف ذا العينين، وذا الوجهين، فلم يخلط القديم مع الحادث.

قال الشيخ محمد بن حسن السمنودي في «تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين»: **للنفس مقامات سبعة:**

المقام الأول منها: ظلمات الأغيار؛ ويسمى: بالنفس الأمّارة.

الثاني: مقام الأنوار؛ ويسمى بالنفس اللوامّة.

الثالث: مقام الأسرار؛ ويسمى: بالملهمة.

الرابع: مقام الكمال؛ ويسمى: بالنفس المطمئنة.

الخامس: مقام الوصال؛ ويسمى: بالنفس الراضية.

السادس: مقام تجليات الأفعال؛ ويسمى: بالنفس المرضية.

السابع: مقام تجليات الأسماء والصفات، ويسمى: بالنفس الكاملة

وقال السيد محمود أبو الفيض المنوفي: **مقامات النفس سبعة:**

الأول: مقام ظلمات الأغيار؛ وتسمى النفس فيه: الأمّارة.

الثاني: مقام حدوث الأنوار؛ وتسمى النفس فيه: اللوامّة.

الثالث: مقام درك الأسرار في الخير والشر؛ وتسمى النفس فيه: الملهمة.

الرابع: مقام التوازن النفسي؛ وتسمى النفس فيه: مطمئنة.

الخامس: مقام نيل الوصال؛ وتسمى النفس فيه: راضية.

السادس: مقام تجلي المواهب الإلّهية؛ وتسمى النفس فيه: مرضية.

السابع: مقام تجلي الأسماء والصفات الإلّهية على القلب؛ وتسمى النفس فيه: كاملة.

قال الشيخ سعيد النورسي في «أنوار الحقيقة»:

للسلوك تسع ثمرات من الثمار الوفيرة وفوائدها:

الأولى: هي ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين.

الثانية: توجيه اللطائف إلى الله؛ وهي تحقيق الوجود الحقيقي للإنسان بانسياق لطائفه جميعًا إلى ما خلقت لأجله، وذلك بأن تكون الطريقة واسطة لتحريك قلب الإنسان ـ الذي يعتبر مركزًا لجسمه ولولبًا لحركته ـ وتوجيهه إلى الله. فيندفع بهذا كثيرٌ من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان.

الثالثة: التخلص من الانفراد: وهو التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ، بالالتحاق بإحدى سلاسل الطريقة عند سيرها وتوجهها وسفرها نحو الحياة البرزخية، ونحو الحياة الأخروية، وعقد أواصر الصداقة والمحبة بتلك القافلة النورانية إلى أبد الآباد.

الرابعة: لذة الإيمان: وهي خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التي تكتنفه في حياته الدنيا، والانسلال من الغربة الأليمة

التي يحسها إزاء الكون، وذلك بما تقوم به الطريقة الصائبة الصافية من تفجير ينابيع محبة الله ومعرفته في الإنسان.

الخامسة: صحوة القلب: وهي الشعور بالحقائق اللطيفة في التكاليف الشرعية، وتقديرها بوساطة القلب المنتبه بدوام ذكر الله، كما يعينه على ذلك المنهج التربوي للطريقة، وبذلك تكون الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف.

السادسة: مراتب السعادة: هي نيل مقام التوكل، ودرجة الرضا، ومرتبة التسليم، هذه المقامات هي السبيل إلى تذوق السعادة الحقيقية والتسلية الخالصة، واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة.

السابعة: النجاة من الشرك الخفي: وهي نجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتصنع وأمثالها من الرذائل، وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة، وأهم نتيجة لها، وكذا التخلص من أخطار النفس الأمارة بالسوء، ومن أدران الأنانية بتزكية النفس، التي هي السلوك العملي في الطريقة.

الثامنة: تحول العادات إلى عبادات: وهي جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات، وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأس مال عمره من الحياة بدقائقها، وجعلها بذورًا تتفتح عن زهرات الحياة الأخروية وسنابلها. وذلك بدوام الذكر القلبي، والتأمل العقلي، مع الحضور القلبي الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة، والنية الصافية، والعزيمة الصادقة، التي تلقنها الطريقة.

التاسعة: الإنسان الكامل: وهي العمل للوصول بالمؤمن مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله وسيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق، والمسلم الصادق، أي: نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم أن يكون الإنسان عبدًا خالصًا لربّ العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلًا عن الكائنات من جهة، ووليًا لله وخليلًا له، حتى كأنه مرآةٌ لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويمٍ حقًا، فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا، والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية، بل الدخول فيها.

مرجع الطرق والطريق الموصلة:

ويعبر عن السير والسلوك بالطريق الصوفي أو الطرق الصوفية.

قال الشيخ أحمد بن عباد الشاذلي: الطرق وإن تنوعت وكثرت فإنها ترجع إلى قسمين وهما: العلم والعمل.

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني في تفريج الخاطر: إن الطريق الموصل إلى الله طريقان:

أحدهما: طريق النبوة، والواصلون من هذا الطريق: هم الأنبياء بالأصالة.

والثاني: طريق الولاية، والواصلون من هذا الطريق هم الواصلون بالواسطة: وهم الأقطاب، والأوتاد، والأبدال، والنجباء، وعامة الأولياء، والواسطة في هذا الطريق سيدنا علي رضي الله عنه.

جاء في تفسير >روح البيان< للشيخ إسماعيل حقي البروسوي (300/6): الطريق طريقان: طريق القراءة والدراسة والسماع والمطالعة، وطريق الرياضة والمجاهدة والتزكية والتحلية؛ وهي أهدى إلى الحضرة الأحدية من الطريق الأولى، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبرًا (أي بحسب الانجذاب الروحاني) تقربت إليه ذراعًا» أي بالفيض والفتح والإلهام والكشف. فما لا يحصل بطريق الدراسة من الكتب، يحصل بطريق السلوك والسماع في طريق الدراسة من المخلوق، وفي طريق الوراثة من الخالق، وشتان بين السماعين، ومنها أنه لو كان للطالب الصادق والمريد الحاذق شيخ يقتدي به وله شأن مع الله ثم استعد لخدمة شيخ كامل هو أهدى إلى الله منه وجب عليه اتباعه والتمسك بذيل إرادته، حتى يتم أمره، ولو تجدد له في أثناء السلوك هذا الاستعداد لشيخ آخر أكمل من الأول والثاني وهلم جرًا، ويجب عليه اتباعه إلى أن يظفر بالمقصود الحقيقي، وهو الوصول إلى الحضرة بلا اتصال ولا انفصال.

ومنها: أن أهل الحسبان والعزة يحسبون أنهم لو جاهدوا أنفسهم على ما دلهم بالعقل بغير هدى من الله ـ أي بغير متابعة الأنبياء ـ أنهم يهتدون إلى الله ولا يعلمون أن من يجاهد نفسه في عبودية الله بدلالة العقل دون متابعة الأنبياء، هو متابع هواه ولا يتخلص أحد من أسر الهوى بمجرد العقل فلا تكون عبادته مقبولة إذ هي مشوبة بالهوى، ولا يهتدي أحد إلى الله بغير هدي من الله كما أن نبينا عليه السلام مع كمال قدره في النبوة والرسالة احتاج في الاهتداء إلى متابعة الأنبياء كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولهذا السر بُعثت الأنبياء، واحتاج المريد للشيخ المهتدي إلى الله بهدي من الله وهو المتابعة.

ومنها: أن الظالمين هم الذين وضعوا متابعة الهوى في موضع متابعة الأنبياء وطلبوا الهداية من غير موضعها فأهل الهوى ظالمون.

قال بعضهم: **للإنسان مع هواه ثلاثة أحوال:**

الأولى: أن يغلبه الهوى **فيتملكه كما قال تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23].

والثانية: أن يغالبه فيقهر هواه مرة ويقهره هواه أخرى وإياه قصد بمدح المجاهدين وعناه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم».

والثالثة: أن يغلب هواه كالأنبياء عليهم السلام وصفوة الأولياء قدس الله أسرارهم، وهذا المعنى قصده تعالى بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. وقصده النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «ما من أحد إلا وله شيطان وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته». فإن الشيطان يتسلط على الإنسان بحسب وجود الهوى فيه.

وينبغي للعاقل أن يكون من أهل الهدى لا من أهل الهوى. وإذا عرض له أمران فلم يدرِ أيهما أصوب فعليه بما يكرهه لا بما يهواه، ففي حمل النفس على ما تكرهه مجاهدة، وأكثر الخير في الكراهية والعمل بما

أشار إليه العقل السليم واللب الخالص.

وقال: لكل فريق من الطلاب شرعةٌ هم واردوها، ولكل قوم طريقةٌ هم سالكوها، ربط كل جماعة بما أهلهم، وأوصل كل ذوي رتبة إلى ما جعله محلهم.

فبساط التعبد: موطوءٌ بأقدام العابدين.

ومشاهد الاجتهاد: معمورةٌ بأصحاب الكَلَفِ من المجتهدين.

ومجالس أصحاب المعارف: مأنوسةٌ بلوازم العارفين.

ومنازل المحبين: مأهولةٌ بحضور الواجدين.

والسير والسلوك والرياضة وكل ما هنالك: فهو لتحصيل الرتبة الاعتدالية الواقعة بين أحكام العلم والاعتقاد الصحيح؛ وبين الأعمال والأخلاق والصفات على مقتضى الموازين العقلية والشرعية، لظهور عين الصورة القلبية وحكمها.

قال الشيخ أحمد الرفاعي الكبير في «حالة أهل الحقيقة مع الله»:

معاملة القلوب على عشرة مدارج: أولها الخطرات، ثم حديث النفس، ثم الهم، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم الرضا، ثم الاختيار، ثم النية، ثم العزيمة، ثم القصد، حتى يبلغ إلى عمل الظاهر.

فمن قام لله تعالى فحفظ معاملة القلب عند الخطرات، فهو على مدارج الصديقين.

ومن قام لله تعالى فحفظ معاملة القلب عند حديث النفس، فهو على مدارج المقربين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند الهم، فهو على مدارج الأوابين.

ومن قام لله على حفظ معاملة القلب عند الفكرة، فهو على مدارج المخلصين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند الإرادة، فهو على مدارج المريدين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند الاختيار: فهو على مدارج المتقين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند النية، فهو على مدارج الزاهدين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند العزم، فهو على مدارج المنيبين.

ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند القصد، فهو على مدارج المجتهدين.

ومن قام لله تعالى فحفظ معاملة القلب على عمل الظاهر، فعلى مدارج العابدين، من عامة الموحدين.

أنواع السلوك:

والسلوك: هو عمل الإنسان الإرادي المتجه نفسية أو روحية أو فكرية.

والسلوك نوعان:

1ـ خلقي: وهو ما كان نابعًا عن صفة نفسية قابلة للمدح أو الذم، كإعطاء الفقير، والإنفاق في وجوه الخير حال كونه نابعًا عن جودٍ وكرمٍ، وكذلك الإقدام دفاعًا عن الحق، وإزهاقًا للباطل

حال كونه نابعًا عن الشجاعة، فهذه صفات حميدة لأنها من فضائل الأخلاق، فآثارها تابعة لها في الحكم. روى الترمذي وأحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟! قَالَ: «يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى».

2ـ سلوك إرادي غير خلقي: منه ما هو استجابة لغريزة جسدية كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ، فقد يجوع الإنسان فيأكل ملبيًا حاجة عضويته، وهنا نقول: إن تناوله للطعام بتأثير دوافع الجوع سلوك لا علاقة له بميزان الأخلاق إيجابًا أو سلبًا، ولكن شرهه الزائد عن الحاجة والموقع له في المضرة سلوك ناتج عن خلق غير محمود، أما قناعته فيه والتزامه بمقدار الحاجة ـ ذلك بضبط نفسه عن دوافع الشره ـ سلوك أخلاقي كريم، ناشئ عن قوة إرادته العاقلة التي تمنعه عن مواقع الضرر.

ومن هذا يتبين لنا الآتي:

1ـ أن السلوك إما أن يكون سلوكًا خلقيًّا، وإما يكون سلوكًا لا علاقة له بالأخلاق.

2ـ أن السلوك الإرادي غير الخلقي يكون استجابة لغرائزه، شريطة أن يكون على قدر الحاجة بلا زيادة ولا نقصان. فمثلًا: الأكل قدر الحاجة سلوك إرادي خلقي إذا كان استجابة لغريزة الجوع، فإذا زاد عن الحاجة

أو نقص تحول إلى سلوك أخلاقي ذميم عند الزيادة، لأنه نابع عن صفة مرذولة هي الشره، أما عند النقص فيكون محمودًا، إذا كان نابعًا عن قناعة مع نية صالحة، لأنها من الفضائل.

قال سيدي محيي الدين بن عربي في «الفتوحات المكية» (34/1):

اعلم ـ وفقك الله ـ أن السلوك انتقال من منزلة عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القربة إلى الله تعالى، إلى عمل مشروع بطريق القربة إلى الله تعالى، بفعل وترك، فمن فِعْلٍ إلى فِعْلٍ، أو من تركٍ إلى تركٍ، أو من فعلٍ إلى تركٍ، أو من تركٍ إلى فعلٍ، وما ثم خامس للصورة، وانتقال بالعلم من مقامٍ إلى مقامٍ، ومن اسمٍ إلى اسمٍ، ومن تجلٍ إلى تجلٍ، ومن نَفَسٍ إلى نَفَسٍ، والمنتقل: هو السالك؛ وهو صاحب مجاهدات بدنية ورياضات نفسية، قد أخذ نفسه بتهذيب الأخلاق، وحكم على طبيعته بالقدر الذي يحتاج إليه من الغذاء الذي يكون به قوام مزاجها واعتدالها، ولا يلتفت إلى جوع العادة، فإن الله ما كلف نفسًا إلا وسعها، فإذا بذلت الوسع في طاعة الله تعالى لم يقم عليها حجة.

أنواع السالكين:

غير أن السالكين في سلوكهم على أربعة أقسام: منهم سالك يسلك بربه، وسالك يسلك بنفسه، وسالك يسلك بالمجموع، وسالك لا سالك، فيتنوع السلوك بحسب قصد السالك ورتبته في العلم بالله تعالى، فأما السالك الذي يسلك بربه؛ فهو الذي يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن عينه ثابتة، ولهذا أعاد الضمير عليه لوجوده في قوله كنت سمعه، فهذه الهاء هي عينك التي الحق سمعها وبصرها، وما سلكت إلا بهذه القوى، وهذه

القوى قد أخبر الحق أنه لما أحبك كان سمعك وبصرك فهو قواك، فبه سلكت في طاعته التي أمرك بأن تعمل نفسك فيها وتحلي ذاتك بها، وهي زينة الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى الجميل، والزينة جمال، فهو جمال هذا السالك، فزينته ربه، فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يسلك، ولا مانع من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. لما أحبهم حين تقربوا إليه بنوافل الخيرات زينهم به، فكان قواهم التي سلكوا بها ما كلفهم من الأعمال، وهو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهي كلمة تطلبها المجازاة فاستعانوا بالله على عبادته بأن كان قواهم، كما أنه بوجود أعيانهم، وإن كان وجودهم قد استفادوه منه؛ لم يتمكن خلق الأعمال التي هي محاب الله إلا في وجود أعيانهم فحصل لديهم ضرب من الإعانة على إيجاد الأعمال التي لا تقوم بنفسها، فلما عملوا بها وما زالوا يطلبون الاستغاثة منه على ذلك جزاءً وفاقًا أعانهم بنفسه، بأن قال لهم: بي تسمعون، وتبصرون، وتبطشون، وغير ذلك من القوى التي هم عليها ليست غير الحق بإخبار الحق، والناس في عماية لا يعرفون من هذه صورته، فكثيرًا ما يسيئون الأدب على من هذه صفته، فتكون إساءة ذلك الأدب مع الله، فالاحتياط تعظيم عباد الله، فإنه ما من شخص إلا ويمكن أن يكون هو ذلك العبد، فإن الأمر غيب ما هو بمحسوس حتى يتميز عند أهله، فوجب مراعاة كل مؤمنٍ على كل مكلفٍ، فإنه إذا فعل ذلك أحرز الأمر واستبرأ لنفسه، ولا يقال لم فعلت كذا؟ فإنه قصد جميل فإن وافق محله فبها

وإلا فقد وفى الأمر حقه لقصده احترام الجناب الإلهي، لما دخل في المسألة من الإمكان لكل شخص وهذا لا يكون إلا للأدباء من أهل الله.

والقسم الآخر السالك بنفسه؛ وهو المتقرب إلى ربه ابتداءً بالفرائض ونوافل الخيرات الموجبين لمحبة الحق، من أتى بهما لتحصيل المحبتين فهو يجتهد فيما كلفه الحق ويبذل استطاعته وقوته فيما أمره به ربه ونهاه. قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. **وقوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. [آل عمران: ١٠٢]. **وقوله** تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. [آل عمران: 102]. وإن كانوا قد سمعوا هذا الخبر الإلهي واعتقدوه إيمانًا به، ولكن ما حصل لهم هذا ذوقًا، فيكون الحق قوّاهم فهم سالكون بنفوسهم في جميع مراتب السلوك من حالٍ وعملٍ ومقامٍ واسمٍ وتجلٍّ، وما يصح فيه الانتقال من أمرٍ إلى أمر وهذا هو سلوك الأدباء من أهل الله، وذلك أن الله كلف عباده، فعلموا أن **ثمة حقيقة تقتضي أن تكون المخاطبة بالتكليف، وما هذه الحقيقة إلا هم، فيعلمون أنهم** المرادون، وإن لم يتعين عندهم بأي حقيقة توجه إليهم الخطاب، فيسلكون بنفوسهم في العموم، مع علمهم بأن الأمر لا بد فيه من نسبة خاصة أو عين موجودة تستحق التكليف، فيبذلون المجهود ويوفون بالعقود وإن جهلوا المقصود، إلى أن يفتح الله لهم كما فتح لمن سلك بربه. وأما السالك بالمجموع: فهو السالك بعد أن ذاق كون الحق سمعه وبصره، وعلم سلوكه أولًا بنفسه على الجملة من غير شهود نفسه على التعيين، فلما علم أن الحق سمعه وعلم أن السامع بالسمع ما هو عين السمع ورأى ثبوت هذا الضمير وعاين على

من عاد، فعلم أن نفسه وعينه هي السميعة بالله والناظرة بالله والمتحركة بالله والساكنة بالله، وأنها المخاطبة بالسلوك والانتقال، فسلك بالمجموع.

وأما القسم الرابع: وهو سالك لا سالك، فهو أنه رأى نفسه لم تستقل بالسلوك ما لم يكن الحق صفة لها، ولا تستقل الصفة بالسلوك ما لم تكن نفس المكلف موجودة، ويكون كالمحل لها فيبدو له أنه سالك بالمجموع، فإذا تبين له أن بالمجموع ظهر السلوك، بان له أن المظهر لا وجود له عينًا، وأن الظاهر تقيد بحكم استعداد المظهر، ورأى الحق يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. [الأنفال: ١٧]. **وكذلك لو قال:** وما رمى لصح كما صح في الطرف الأول، فمن وقف على هذا العلم من نفسه علم أنه سالك لا سالك. ثم اعلم أن السالكين الذين ذكرناهم على مراتب: فمنهم السالك منه إليه، ومنهم السالك لا منه، ولا إليه، ولا فيه، وهو موصوف بالسلوك وبأنه سالك. ومنهم السالك من غير سفر، ومنهم السالك المسافر، وهو في الباب الذي يلي هذا الباب فكل مسافر سالك وما كل سالك مسافر كما سنذكره إن شاء الله بعد هذا الباب في باب المسافر.

وأنواع السلوك كثيرة ـ وما ذكرنا منها إلا القليل ـ:

فأما السالك منه إليه؛ فهو المنتقل من تجلٍ إلى تجلٍ.

وأما السالك إليه منه؛ فهو السالك من اسم إلهي إلى اسم إلهي في اسم إلهي.

وأما السالك منه إليه فيه؛ فهو السالك باسم إلهي من اسم إلى اسم في اسم.

وأما السالك منه لا فيه ولا إليه؛ فهو الذي خرج من عند الله في الكون

إلى الكون.

وأما السالك إليه لا منه ولا فيه؛ فهو الفار إليه في الكون من الكون كفرار موسى عليه السلام.

وأما السالك لا منه ولا فيه ولا إليه؛ فهو المنتقل في الأعمال الصالحة من الدنيا إلى الآخرة وهم الزهاد غير العارفين.

وكما ذكرناه قد يكون على التقسيم الذي تقدم في حرف الباء من أنه سلك بربه أو بنفسه إلى نهاية التقسيم فيه. وللسلوك مراتب وأسرار يطول النظر فيها ويخرجنا عن المقصود في هذا الكتاب من الاقتصاد والاقتصار على الضروري من العلم الذي يحتاج إليه أهل طريق الله أن يُبين لهم ممن فتح الله عليهم به من أمثالنا، وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه ما استوفينا فيه خاطرًا واحدًا من خواطرنا في الطريق، فكيف الطريق؟ ولا أخللنا بشيء من الأصول التي يعول عليها في الطريق فحصرناها مختصرة العبارة بين إيماء وإيضاح.

واعلم: أن السالك إذا وصل إلى الباب الذي يصل إليه كل سالك بالاكتساب فآخر قدم في السلوك هو خاتمة السالكين، ثم يفتح الباب وتخرج العطايا والمواهب الإلهية بحكم العناية والاختصاص لا بحكم الاكتساب، وهذا الباب الإلهي قبول كله لا رد فيه البتة بخلاف أبواب المحدثات، فإن توسعنا في العبارة مع النظار لم نقل أن عدم الممكن لنفسه، لأنه لو كان العدم له صفة نفس لاستحال وجوده، كما يستحيل وجود المحال، ولكن كما نقول: تقدم العدم له على الوجود لذاته لا العدم وبينهما فرقان عظيمان، ولكن ليس مذهبنا فيه إلا أن عدمه لم يزل مرجحًا،

فوجود الممكن له سابقة لكونه لم يكن ثم كان، ولكن من حيث عينه إذا كان قائمًا بنفسه لا من حيث صورته، فلا خاتمة له في عينه وله الخواتم في صورته بالأمثال والأضداد، فكل حادث سوى الأعيان القائمة بنفسها فله سابقة وخاتمة، لكن سابقته عين خاتمته، لأنه ليس له في كونه غير زمان كونه خاصة ثم ينعدم لنفسه وإنما تتميز السابقة فيه من الخاتمة بالحكم فتحكم عليه بالوجود في السابقة وبالعدم في الخاتمة وفي عين سابقته،لأنه ليس له وجود في الزمان الثاني من زمان وجوده فافهم.

وفيه أقول:

كل باب إذا وصلت إليه	أمكن الرد والقبول جميعا
غير باب الإله فهو قبول	للذي جاءه سميعًا مطيعا
والذي رذاذ تخيّل فيه	أنه الباب خرّ ثم صريعا
فيناديه ربه ليس بابي	إن بابي لمن يريد خشوعا
لو فطنت حين جئت إليه	كنت عاينت فيك أمرًا بديعا
أنت ما أنت لست أنت سوانا	فاسكب إن شئت للفراق دموعا

ولما وصلت في جماعة الواصلين من أهل زماني إلى هذا الباب الإلهي وجدته مفتوحًا، ما عليه حاجب ولا بواب، فوقفت عنده إلى أن خلع عليَّ خلعة الوراثة النبوية، ورأيت خوخةً مغلقةً فأردت قرعها، فقيل لي: لا تقرع فإنها لا تُفتح، فقلت: فلأي شيء وضعت؟ قيل لي: هذه الخوخة التي اختص بها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولما كمل الدين أغلقت ومن هذا الباب كانت تخلع على الأنبياء خلع الشرائع، ثم إني التفت في

الباب فرأيته جسمًا شفافًا يكشف ما وراءه، فرأيت ذلك الكشف عين الفهم الذي للورثة في الشرائع وما يؤدي إليه اجتهاد المجتهدين في الأحكام، فلازمت تلك الخوخة والنظر فيما وراء ذلك الباب فجليت لي من خلفه صور المعلومات على ما هي عليه فذلك عين الفتح الذي يجده العلماء في بواطنهم ولا يعلمون من أين حصل لهم إلا أن كوشفوا على ما كشف لنا.

فالنبوة العامة لا تشريع معها والنبوة الخاصة التي بابها تلك الخوخة هي نبوة الشرائع فبابها مغلق والعلم بما فيها محقق فلا رسول ولا نبي، فشكرت **الله على ما منح من المنن في السر والعلن، فلما اطلعت من الباب الأول** الذي يصل إليه السالكون الذي منه تخرج الخلع إليهم رأيت منه شكر **الشاكرين كالصور التي تجلت لنا خلف الخوخة، والظاهر من الشكر** كالخوخة فلم أرى **شاكرًا إلا لواحد من خلف الكلمات الظاهرة فلم أجد في تلك الحالة** مساعدًا لي على الشكر فقلت أخاطب ربي تعالى عزّ وجلّ:

إذا رمتُ شكرًا لم أجد لك شاكرًا ... وإن أنا لم أشكر أكون كفورا
سترت عقول الخلق بالسبب الذي ... وضعت فلم آنس عليك غيورا
وقد بلغت عنك التراجم غيرة ... أمرت بها عبداً بتلك خبيرا
لذلك لم تشهد ولم تك ظاهرًا ... ولو كنت مشهودًا لكنت غفورا
وقد قلت بالتلبيس في الملك الذي ... بعثت شخيصًا للأنام بصيرا
وكيف لنا بالعلم والأمر لم يزل ... على حالة الإمكان منك ظهيرا

وخلاصة السلوك: أنه عبارة عن الدخول في المقامات الشهودية، والمنازل الوجودية، والحضور في المراتب الغيبية.

ثانيًا: السير:

السير مرتبطٌ بسير القلوب وتوجهها إلى الله سبحانه وهو ثمرةٌ للسلوك والمجاهدات ولطريق التصوف.

والسير يكون في معارج القلوب وسيرها إلى حضرة علام الغيوب، وهو نتيجة النجاح في السلوك ولذلك فالسلوك متقدم على السير عملًا ومنهاجًا وإن قدم السير عليه لفظًا.

تقدم معنا أن السير يتعلق بمعارج القلوب وانتقالها من مقام إلى مقام، وسبيل الوصول إلى ذلك سنقف عليه من خلال كلام أهل الاختصاص في ذلك:

قال الغوث الأعظم سيدي عبد القادر الكيلاني في «الفتح الرباني والفيض الرحماني»: السير: هو سير القلوب، وسير الأسرار.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة «السير والطير»:

السير المأمور به: هو تجريد التوحيد، ونفي رسوم الأغيار في النفع والإضرار، والمنع والإيثار.

وقال الشيخ نجم الدين الكبري في «فوائح الجمال وفواتح الجلال»: السير: هو ليس إلا تصفية الجوهر ليُعلم.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي في >المناظر الإلهية<: السير: هو عبارة عن تجاوز المقامات، وقطعها بغير مكث في شيء منها لحكم العائق.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في شرح ديوان ابن الفارض: «السير»:

هو كنايةٌ عن السلوك بالروحانية في طريق الأذواق الوجدانية، وهي الجذبة الإلآهية، لأنه لا بد منها في تحقيق معرفة الحضرة الربانية، إذ لا يمكن الوصول إليه تعالى إلا به سبحانه لا بالنفس.

ويقول سيدنا الشيخ محمد النبهان كما ذكر هشام عبد الكريم الآلوسي في كتابه «السيد النبهان، العارف بالله المحقق والمربي الصوفي المجاهد»: السير: هو خرق الحجب وتمزيقها بين العبد وربه، لا السير من مكانٍ إلى مكان.

وقال الشيخ حيدر بن علي الآملي ـ كما جاء في >ختم الأولياء< للحكيم الترمذي ـ: السير على ثلاثة أقسام: لله؛ وفي الله؛ وبالله، أما الذي لله؛ فهو ينتهي إلى الله، وأما الذي في الله؛ فلا نهاية له، وأما الذي بالله؛ فهو مقام التكميل في حالة صار سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله لله بالله، أعني: لا بشيء إلا به.

أنواع السير:

قال الشيخ داود خليل: **السير سبعة أنواع:**

السير إلى الله، والسير لله، والسير على الله، والسير مع الله، والسير في الله، والسير عن الله، والسير بالله.

والسائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصده لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قو ة علمية.. وقوة إرادية.

فبالقوة العلمية: يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواضع العطب.

وبالقوة العملية: يسير حقيقةً، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير: هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى الله إذا أبصر الطريق وأعلامها، **وأبصر المعاثر والوهاد، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه** الشطر الآخر.

وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، وكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى. فإذا استشعر قرب المنزل، هانت عليه مشقة السفر

وكلما سكنت نفسه من كلالة السير وعدها قرب التلاقي، وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها عند ذلك نشاطًا وفرحًا وهمةً، فتواصل السير إلى منازل الأحبة، فتصل حميدة مسرورة، يتلقاها الأحبة بأنواع التحف والهدايا والكرامات، وليس بينها وبين ذلك إلا صبر ساعة.

والناس من حيث القوة العلمية والعملية قسمان:

الأول: من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه. ويكون ضعيفًا **في القوة العملية، يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المخاوف** والمتالف ولا يتوقاها.

فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف، وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، إذ قد يكون لها مقاصد غير وجه الله تحرمها ثمرة العلم، وهو العمل بموجبه، والمعصوم من عصمه الله.

الثاني: من تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجد والتشمير في العمل.

ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقيدة، والانحرافات في الأقوال والأعمال، كما كان الأول ضعيف العقل والإرادة عند ورود الشهوات.

فداء هذا من الجهل، وداء الأول من فساد إرادته، وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والسالكين على غير طريق العلم.

فهؤلاء كلهم عميٌ عن ربهم وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه.

ومن كملت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، ورجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته. ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن لله في خلقه شوؤن، وحكم وأسرار يجهلها أكثر العباد، والله حكيم عليم.

وقال الإمام أبو حامد الغزَالي في إحياء علوم الدين (85/2):

فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته وأرضه، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفسدات القلوب، وطلب طرق التحصن منها. وكل ذلك يستدعي الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال.

وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر. وليكن له أهل صلاحٍ أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة، ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا والناس منهمكون فيها، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدّر لنفسه عمرًا طويلًا، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه الصبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة، لو قدر تراخي الأجل. وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة.

وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشه الوحدة بعد الموت. وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه، إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيًّا بمعرفته وأنسه، فرحًا بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. [آل عمران: ١٦٩ ١٧٠]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد أينما أدركه الموت مقبلًا غير مدبر. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِسْلامًا مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ فِي ذَاتِ اللهِ، وَأَفْضَلُ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ». [البخاري والترمذي].

والجهاد الأكبر جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: >رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر<.

يعنون جهاد النفس. اهـ

وقال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشد، فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق.

وقال ابن عجيبة في شرح الحكم: فأهل السير من المريدين يشهدون الكون، ثم يشهدون المكون عنده وبأثره فينمحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرفين وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الخلق. بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلًا إذ لا ثبوت لهم عندهم لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة، فانون عن الحكمة، غرقى في بحر الأنوار، مطموس عليهم الآثار، وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله. وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين، قد أعوزهم أي فاتهم وجود الأنوار ومُنعوا منها، وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها، لكن لا بد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب، ولله در القائل:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبًا وكيف يعرف من بالعزة استترا

رسائل الشيخ الأكبر ابن عربي:

يقول الشيخ الأكبر ابن عربي قدس الله سره كما جاء في رسائله:

مراتب السير على خمس عشرة مرتبة:

أولها: السلوك، والسلوك سلوك الملوك، وسلوك الصعلوك، في شرائع الإيمان، والإسلام، والإحسان بالقلب، واللسان، والجنان، يفهم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [طه: ٥٣].

وثانيها: السير، وهو سير الضعيف الكثيف، وسير القوي اللطيف، وسير المعتدل الخليف، بأهله وآله وعياله، إلى وقت ساعته، وحاله يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩].

وثالثها: المشي، وهو مشي الذاكر، ومشي الناظر، ومشي الحاضر، من الصورة إلى السورة، ومن السورة إلى الصورة، ومن الصورة والسورة إلى الكورة، يفهم من قوله تعالى في الحديث القدسي: «وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». [صحيح مسلم]، وقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾. [النور: ٤٥]. والمعنى في هذه الآيات بعضه بطريق العبارة وبعضه بطريق الإشارة وبعضه بطريق الإثارة.

ورابعها: الاقتراب، والاقتراب: اقتراب المتعلم، واقتراب المتسلم،

واقتراب المتكلم إلى المعلم، والمسلم والمكلم في تقادير الشبر والذراع، والباع، على نعت الائتلاف والاعتراف والاجتماع، قال تعالى إشارة: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وخامسها: الطير، والطير: طير الطائر، وطير الصائر، وطير الزائر.

وسادسها: **السّبْح: سبح السابح في نهر الحياة الجاري من عين** الرضوان، وسبح السابح في أرض بحر الحيوان، المتصلة بأرض القرآن، وسبح السابح في ماء الحياة المتصل بما كان عليه عرش الرحمن.

وسابعها: الدؤوب: وهو دأب شمس العقل في الأفعال، ودأب قمر القلب في الأقوال.

وثامنها: المرور: وهو مرور الجبال، وكمرور السحاب الثقال، ومرور المنال، بذهاب المثال.

وتاسعها: الجري: وهو جري السعيد في شهادته إلى المقر، وجري المحيط إلى الله العزيز الأجل...

وعاشرها والحادية عشرة: الغدوة والروحة، وهي الغدوة في سبيل الله لمحق التقلبات الألفية...

والثانية عشرة: الفرار: وهو فرار المثبت المنبت، وفرار النافي الميت، وفرار المعتدل المنصت...

الثالثة عشرة: الإعجال: وهو إعجال المصلي في صلاته عن قومه، وإعجال الصائم في صومه عن يومه ونومه، وإعجال الصامت عن

صلاته وصومه، وهو عجل منه إليه ليرضى...

الرابعة عشرة: التقلب: وهو تقلب القائم في أصلاب الركوع والسجود، والتقلب القيم في أرحام الوجود، وتقلب الوجهية بوجهه القيوم في سماء الكرم والجود...

الخامسة عشرة: الإلقاء: وهو إلقاء الحي بحياته، وإلقاء المناجي بمناجاته، وإلقاء الثابت بمقالاته.

ولما كان السير في معارج القلب فمن المهم أن أتحدث في:

منازل القلوب:

قال الشيخ أبو الحسين النوري في رسالة له في القلوب:

للقلوب أربع منازل:

أولها: سلامة القلب من الشك.

والثانية: سلامة القلب من الهوى.

والثالثة: سلامة القلب من الرياء والعجب.

والرابعة: سلامة القلب من ذكر كل شيء سوى ذكر الله عز وجل.

وقال الشيخ أبو عبد الله بن البناء كما جاء في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصفهاني:

اعلم أن قلوب العمال من أهل المعرفة بالله على أربع منازل:

قلب مع الله، وقلب في ملك الله، وقلب في التمييز، وقلب في

المكابدة.

فأما القلب الذي مع الله: فعلامته المناجاة والاشتغال بالله.

وأما القلب الذي في ملك الله: فمرة يجول في الجنة، ومرة يجول في النار، والصراط، والحساب، والميزان، والعرض.

وأما القلب الذي في المكابدة: فهو الذي يرد على الشيطان خوف الفقر، وهو مشغول بتصحيح الكبيرة. فهذه الأربع المنازل منازل العقلاء.

والخامسة: قلب النقمة الشيطان.

قال الشيخ الأكبر ابن عربي ﷺ في «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق»: القلب هو بيت التجلي، وعرش المتجلي.

وقال الإمام القشيري ﷺ كما نقل عنه الشيخ يوسف النبهاني في «جواهر البحار في فضائل النبي المختار»: يقال: القلوب مستودع التحقيق من قبل الله. ويقال: القلوب مستودع المعرفة، فالمعرفة وديعة فيها.

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني في «طهارة القلوب»: يقال: شُبهت القلوب بالآنية: فقلب الكافر: إناء منكوس لا يدخله شيء من الخير. وقلب المنافق: إناء مكسور ما ألقي فيه من أعلاه نزل من أسفله. وقلب المؤمن: إناء صحيح معتدل يلقى فيه الخير.

وقال الشيخ أبو الحسين بن هند الفارسي كما جاء في >طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي:

القلوب أوعية وظروف، وكل وعاء وظرف يصلح لنوع من المحمولات:

فقلوب الأولياء: أوعية المعرفة.

وقلوب العارفين: أوعية المحبة.

وقلوب المحبين: أوعية الشوق.

وقلوب المشتاقين: أوعية الأنس.

وقال الشيخ السري السقطي كما جاء في «طبقات الصوفية»: أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها:

الخوف من الله وحده، والرجاء لله وحده، والحب لله وحده، والأنس بالله وحده.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي في >جامع الأصول في الأولياء<: حقيقة شغل القلب: بالله، وقيل: إزالة كل معترض.

وقال الشيخ محمد مهدي الرواس في >بوارق الحقائق<: لحياة القلب شوارق، منها ما لو أُفرغ على الجماد والحيوان غير الناطق لتكلم بإذن الله تعالى.

وقال الشيخ أحمد الكمشخانوي النقشبندي في «جامع الأصول في الأولياء»: جاء تخصيص القلب: بالإيمان، والخشية، والإنابة، والذكر، والتقوى، والسلامة.

قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:22]. وقال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. [الحجرات: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾. [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾. [الحجرات: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

وقال الشيخ سهل بن عبد الله التستري في «تفسير القرآن العظيم»: >تحصل حياة القلب في شيئين: الإيمان في الأصل، والإخلاص في الفرع». ويقول أيضًا في نفس المصدر السابق: للقلب ألف حياة آخرها لقاء الحق عزّ وجل.

وقال الشيخ أبو الحسين الوراق كما جاء في «طبقات الصوفية»: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت.

وقال الشيخ أبو بكر الواسطي كما جاء في «طبقات الصوفية»: حياة القلوب: تصفيتها من كل معلول لفظًا وفعلًا.

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني في «الفتح الرباني والفيض الرحماني»: حياة القلب تكون بالخروج من الخلق والقيام مع الحق ـ عزّ وجل ـ من حيث المعنى.

وقال الشيخ عمر السهروردي في «عوارف المعارف»: قال بعضهم: حياة القلوب: بمشاهدة العيوب، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة في «إيقاظ الهمم في شرح الحكم»: وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

وقال الشيخ سهل بن عبد الله التستري كما جاء في «قوت القلوب»

لأبي طالب المكي: القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة.

وقال الشيخ أبو طالب المكي في «قوت القلوب»: أعراض القلب هي المعاني الباطنة، قد عدلها الله تعالى بحكمته، وسواها على مشيئته، وقومها إتقانًا بصنعته وإحكامًا بصنعه:

أولها: النفس والروح، وهما مكانان للقاء العدو والملك. ومنها: غرضان متمكنان في مكانين: وهما العقل والهوى، عن حكمين في مشيئة حاكم: وهما التوفيق والإغواء.

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني في مراتب ترقيات قلب المؤمن في كتابه «سر الأسرار ومظهر الأنوار»:

أول ما يطلع في قلب المؤمن: نجم الحكمة، ثم قمر العلم، ثم شمس المعرفة. فيصير بنجم الحكمة ينظر إلى الدنيا، وبضوء قمر العلم ينظر إلى الأخرى، وبنور شمس المعرفة ينظر إلى المولى.

ثالثًا: الطريقة:

تُعرَّف الطريقة الصوفية ـ اختصارًا ـ بالمنهج الشرعي الإسلامي الحاصل من اتباع شيخ كامل، الذي يوصل المسلم إلى حالة الصفاء الكاملة في العبادات والمعاملات الفرضية والنفلية، مما يوصل سالكه إلى مراتب التحقيق والكمال. فالمعروف أن تكاليف الشريعة الإسلامية جاءت تخاطب ظاهر المسلم وباطنه، أي: جاءت بالفقه والتصوف (فمن تفقه ولم يتصوف تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه تزندق، ومن تصوف وتفقه تحقق) على حد قول الإمام مالك. فالتصوف ضروري جدًا لصفاء النفس وتوجهها إلى الإخلاص بالعبادة

خصوصاً في عماد الدين الصلاة والتي إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردت رد ما سواها. وبناءً على ذلك فإن أي مسلم ملزم باتخاذ وسيلة أو طريقة صوفية لغرض تصفية صلاته، لأن الصلاة كما تبين إذا صَفت صحّت وإذا صحّت قُبلت، وإذا قُبلت نهت عن الفحشاء والمنكر، فتصفو نفسه، وتخلص في سائر العبادات والمعاملات. قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]. هذا ولقد عرف التاريخ الإسلامي طرقًا كثيرةً لتصفية وتزكية النفس، والطرائق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق، ولكل طريقة أسلوب أو منهج شرعي خاص تنتهجه في تنقية النفوس وعلاج القلوب من أمراضها، والطريقة مسلك خاص من مناهج التصوف يتخذه السالك للوصول إلى غاية، هي الإيمان الكامل الذي يصل إلى عين اليقين أو حق اليقين. وهنا لا يكون الإيمان تقليديًا أو استدلاليًا يمكن تعرضه لهزة الشك إذ يرى بعين بصيرته فلا يؤثر فيه شيء. وكما قال الإمام الرباني في مكتوباته: إن الفرق بين إيمان العلماء وبين إيمان المشايخ الكاملين للتصوف، هو أن معرفة العلماء بالاستدلال، وأن معرفة المتصوفين بالكشف والذوق، وسواء كان الأساس استدلالات أو كشفًا فإن الغاية هي تطبيق الشريعة المحمدية.

وكما أننا نجد في ميادين علوم الشريعة مجتهدين كبارًا برزوا وتركوا مذاهب ومناهج مستقيمة فسرت للأجيال الإسلامية معاني الشريعة وأهدافها، مثل: الإمام مالك بن أنس، وأبي حنيفة، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، ومجتهدين آخرين درسوا هذه العلوم وتبحروا فيها وكوّنوا

مدارس متميزة، فإننا نجد في ميادين علم التصوف رجالًا فضلاء شقوا طرقًا ومسالك اتخذها عشاق الروح للوصول إلى الإيمان الكامل من أمثال: الشيخ معروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي، وذي النون المصري، وعبد القادر الكيلاني، وأحمد البدوي، وأحمد الرفاعي، وبهاء الدين النقشبند، والشيخ عمر السهروردي، وأبي الحسن الشاذلي، ونجم الدين الكبري، وجلال الدين الرومي، ومعين الدين الحسني الجشتي، وأبي العباس التيجاني، وعشرات من هؤلاء الرجال الذين أسسوا طرقًا خاصةً لتربية السالك للوصول إلى نهاية المرام، ولكنها تنبع جميعًا من مصدر واحد، ومثل ذلك في الأمور الدنيوية، والمذاهب الفقهية تهدف إلى توضيح طرق العبادة وأحكام الشريعة والسنة النبوية، لاتخاذها منهجًا للحياة. وكذلك فإن الطرق الصوفية تهدف أيضًا إلى ترسيخ الإيمان الكامل، وإيصال السالك إلى الإيمان اليقينِ «عين اليقين» لكي يكون قلبه مطمئنًا، بالإضافة إلى دعوته لتطبيق تعاليم الشريعة.

وللسلوك الصوفي النقشبندي منهج خاص لإيصال المريد إلى غايته، فالطريقة القادرية مثلًا: تتخذ الذكر الجهري شعارًا لها، والطريقة المولوية: تعرف بقراءة الأشعار والذكر وحفلات السماع، وللنقشبندية: أوراد خاصة بهم، ومع اختلاف الطرق في الأوراد والذكر والشعارات فإنها تلتقي في هدفٍ واحدٍ هو معرفته سبحانه ورضوانه والقرب منه. وهي طرق حددها العارفون بالله من المشايخ المجتهدين في علم التصوف بهداية من ربهم سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. [العنكبوت: ٦٩]. **فقد علمهم الله وهداهم،** ويتولون هم إرشاد مريديهم إلى هذه الطرق. ومثل ذلك مثل الطبيب الذي يكتشف الدواء لمرضٍ ما فيصفه لمرضاه. وهؤلاء أطباء القلوب تسلقوا معالي الآمال في معرفة الله، فيرشدون السالكين للوصول إلى قمم الآمال ولاشك أنها **جميعًا تعود إلى سنة النبي ، وسيرة السلف الصالح من الصحابة** والتابعين، ومصدرها جميعًا هو القرآن الكريم وخاتم النبيين محمد ﷺ، **ولا** فرق بين الشريعة والطريقة ولكن الصوفي ينقطع للذكر والفكر فيصفو قلبه، ويزيد إيمانه فيكون عين اليقين فيطبق الشريعة بقلبٍ ممتلئٍ بالإيمان. ومن انحرف عن الشريعة برئت منه الطريقة **الطريقة النقشبندية.**

سأتحدث ـ وبعد هذه المقدمة ـ بنوعٍ من الإجمال عن الطريقة **النقشبندية** التي أنتسب إليها، من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية:

1ـ ما هو المنهج النقشبندي للوصول إلى قمم الآمال الروحية؟

2ـ كيف بدأت النقشبندية، وسلسلة رجالها رحمهم الله؟

3ـ متى سميت هذه الطريقة بالنقشبندية؟ ولماذا؟

أشير أولًا إلى أقوال لمشايخ التصوف قبل الشروع في الإجابة المفصلة:

قال الشيخ عبد الله الدهلوي المتوفى في (1240هـ):

إن ثمرة هذه الطريقة «النقشبندية» هي الحضور الدائم في حضرة الحق تعالى، وترسيخ العقيدة الإسلامية، عقيدة أهل السنة والجماعة،

واتباع سنة النبي الكريم ﷺ.

وفي كتاب «الحديقة الندية» للشيخ محمد بن سلمان البغدادي يروي أن الشيخ محمد مراد الأزبكي قال:

إن الطريقة النقشبندية طريقة الصحابة الكرام باقية على أصلها، لم يزيدوا ولم ينقصوا، وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهرًا وباطنًا بكمال الالتزام بالسنة والعزيمة، وتمام اجتناب البدعة والرخصة، في جميع الحركات والسكنات من عادات ومعاملات، مع دوام الحضور مع الله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك. ونقل في نفس المصدر عن ابن حجر الهيثمي أنه قال: الطريقة العلية السالمة من كدورات جهلة الصوفية هي الطريقة النقشبندية.

قال مقدم كتاب «النفحات القدسية»: التصوف النقشبندي: اتباع السنة وهو معتدل ووسط وأساسه تطبيق الشريعة وتجنب البدع. ويقول أيضًا: إن اعتدال السلوك النقشبندي وما فيه من اتباع الشريعة، ويسر الطريقة كان السبب في شيوع هذه الطريقة لاسيما بين علماء الدين فقلب الصوفي النقشبندي لله، وجسمه للناس. والحقيقة أن المشايخ الذين وصفوا هذه الطريقة مجمعون على أنها اتباع للشريعة أولًا، والدوام على الذكر والفكر والعبودية والإخلاص والإيثار ونكران الذات ثانيًا.

طرق الوصول:

وبالنسبة لجواب السؤال الأول نقول: جاء في كتاب

>إيضاح الطريق<: أن النقشبنديين لهم ثلاث طرق للوصول إلى قمة المراد:

1ـ الدوام على الذكر.

2ـ المراقبة.

3ـ طاعة المرشد.

ولا بد من القول: بأن الخطوة الأولى هي: التوبة أي الإقلاع عن كل عملٍ سيّئٍ بشكلٍ باتٍّ، وتطبيق تعاليم القرآن والسنة النبوية.

1 ـ الدوام على الذكر:

وللذكر صورتان:

ـ ذكر «الله» ويعني ذكر الذات أو ذكر الجلالة.

ـ ذكر «لا إله إلا الله» ويعني النفي والإثبات.

ومن المعلوم أن الذكر عند النقشبندية ذكر خفي بالقلب.

أ ـ ذكر الله الآداب واللطائف:

من آدابه: أن يكون الذاكر متوضئًا وفي مكانٍ طاهرٍ هادئٍ مستقبلًا للقبلة. فيدعوه سبحانه لحفظه من وسوسة الشيطان والنفس، ثم يستغفر الله. ويتذكر مرشده إن كان له مرشد. وبعد ذلك يبدأ بالذكر بقلبه. ولكن الذاكر يمكنه ذلك بكل صورة وفي أي وقت، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ومن آداب الذكر الصوفي النقشبندي: في البدء يلصق المريد لسانه بعرش فمه لمنعه من الحركة. ثم يذكر «الله» قلبيًا. والقلب من لطائف الباطن وليس المراد به اللحم الصنوبري، ولكنه تحت الثدي الأيسر قليلًا، ويتأمل عظمة «الله»، لا شكل كتابة اسم «الله»، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. [الشورى: ١١]. فيؤمن أن الله موصوف بجميع صفات الكمال ومنزه عن كل نقص. وعلى الذاكر أن يكون دائم الذكر ليلًا ونهارًا، ودون حركة من اللسان والبدن حتى يبدأ قلبه بالذكر، ويشعر هو به. ثم يتوجه إلى روحه التي في الجانب الآخر من الصدر تحت الثدي الأيمن بإصبعين. فيذكر الله به حتى يصبح الروح ذاكرًا أيضًا، ثم يتوجه إلى لطيفة السر التي تقع فوق الثدي الأيسر بإصبعين مائلًا إلى الصدر، ثم إلى لطيفة الخفي الذي يقع وسط الصدر فيبدأ بالذكر. وحين تبدأ لطائفه بالذكر تصبح كل لطيفة مصباحًا مضيئًا بنورٍ خاصٍ، وتبدأ لطيفة النفس بالذكر وهي في الجبين وهي من عالم الخلق، واللطائف الأخرى من عالم الأمر، وهي لطائف معنوية يحس بها السالكون وحدهم وقد ذُكرت سابقًا. وبعد ذلك يبدأ دور «القالب» البدن المؤلف من العناصر، إذ تبدأ كل ذرة في جسده بالذكر ويحس به السالك نفسه. قال الملا حامد البيساراني وهو أحد علماء التصوف من النقشبنديين: منهم من يذكر الله في يومٍ واحدٍ خمسًا وعشرين ألف مرة، وأقلهم يذكر خمسة آلاف مرة. واتضح مما سبق أنهم وضعوا خمس مراحل لذكر اللطائف التي في عالم الأمر، ومرحلتين للطائف عالم الخلق.

إذاً للذكر سبع خطوات: وهذا معنى ما قاله الإمام الرباني: إن طريقتنا سبع خطوات. وقال بعضهم كناية: الطريقة خطوتان: خطوة في **عالم الأمر، وخطوة في عالم الخلق.**

وإن الدوام على الذكر يجعل اللطائف السبع وكل ذرة في الجسم تذكر «الله». وفي هذه الحال يشعر المريد بالراحة واللطافة في قلبه ووجدانه. ويقال لهذه الحالة: «سلطان الأذكار» أو «سلطان الذكر»، وقد يصل إلى حالة يحس فيها الذاكر بعد مواظبته على الذكر أن العالم كله يذكر «الله» بل يسمع ذكر «الله» من كل ذرة في الكون.

وهذه من لطائف الطريقة الجليلة، وقد أشار إليها الشيخ عمر ضياء الدين قُدس سره حين قال في إحدى قصائده الصوفية: «اللطائف جميعها غارقة في ذكر الله».

ولابد من توضيح أن هذه الحالة هي ألف باء التصوف ومقدمته، وهي من حالات التزكية أي تطهير اللطائف، وليست من حالات فناء اللطائف. ولكل لطيفة حالة فناء خاصة، وبعد فناء الكل يأتي البقاء، وفي هذه المدة يطلع السالك على أسرار عجيبة ويمنح من ربه مواهب معنوية.

وقد ذكرت أن اللطائف تتحول إلى مصابيح مشرقة بالنور حين تبدأ بالذكر، ويقولون: إن نور كل لطيفة تحت قدم واحد من الرسل والأنبياء أولي العزم، وكل سالك يفتح له بسبب أحد هذه اللطائف. فيكون له شبه بالخلق المعنوي لذلك النبي، وهي علاقة معروفة لدى العارفين، حتى أنهم يدركون هذه العلاقة بعد موت أصحابها في قبورهم. فهذا خلقه محمدي،

وذلك عيسوي، ومن أدرك هذه الأمور بعين البصيرة، كيف يتسلل الشك إلى إيمانه؟.

اللطائف سبع:

1ـ لطيفة القلب: وموضعها تحت الثدي الأيسر، وهي تحت قدم آدم عليه السلام واللون أصفر.

2ـ لطيفة الروح: وموضعها تحت الثدي الأيمن، وهي تحت قدم نبيين هما نوح وإبراهيم عليهما السلام واللون أحمر.

3ـ لطيفة السر: وموضعها فوق السرة، وهي تحت قدم موسى عليه السلام واللون أبيض.

4ـ لطيفة الخفي: وموضعها فوق الثدي الأيسر، وهي تحت قدم عيسى عليه السلام واللون أسود.

ولا تناقض بين النور ولون السواد، فقد يكون السواد أجمل شيء كلون العين والحاجبين مثلاً.

5ـ لطيفة الأخفى: وموضعها فوق الثدي الأيمن، ولونها أخضر تحت قدم حضرة سيدنا محمد ﷺ.

6ـ لطيفة سلطان الأذكار: وموضعها بين الثديين، وسط الصدر.

7ـ لطيفة النفس الناطقة: وموضعها في وسط الناصية والجبهة.

فإن كان للسالك مرشد فإنه ينتقل بمريده من لطيفة إلى أخرى، وإن تم نور اللطيفة تلألأ هذا النور في وجه المريد فيحس به هو ومرشده.

واللطائف مثلها مثل الحواس وهي في عالم المادة، واللطائف من عالم الباطن، وبعد تزكية لطائف عالم الأمر تبدأ تزكية النفس، وهي من

عالم الخلق، وليس لها لون، كالماء يتلون بما يدخل فيه، وتزكيتها صعبة، فهي من عالم الطبيعة، وهي في الأساس أمّارة بالسوء، ومنها تخرج كل الرغبات الخبيثة، ولكن ذكر الله سبحانه يطهرها ويروضها.

ويرى مشايخ التصوف أن هذا النوع من التزكية يحتاج إلى مرشد. والمقصود بالمرشد العارف العابد الذي لاشك في ولايته واجتيازه هذه المقامات، وهو إنسان بالاسم ولكنه قطعة من نور وملائكي الصنعة ورباني المسلك، ومن أصحاب المقامات العالية للبقاء بعد الفناء. ومثل هذا الإنسان لا يتصور منه الخيانة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يعقل أن يكون هدفه من الإرشاد الدرجات الدنيوية أو المكتسبات المالية. ومن السهل أن ينقاد المرء لشخص له هذه المواهب والصفات ويجعله أستاذه ومرشده.

قلنا: الذكر له صورتان:

أ ـ ذكر «الله» وقد ذكرناه.

ب ـ ذكر «لا إله إلا الله» وهو معروف بالنفي والإثبات. وإن معظم السالكين يبدأ بذكر الله ثم بالنفي والإثبات، وقد يقدم المرشد ويؤخر في ذلك حسب تشخيصه لحال السالك وهو أدرى به.

ب ـ ذكر لا إله إلا الله:

فلنعلم طريقة هذا الذكر: فهو يتحلى بنفس الأدب والصورة التي ذكرناها من ذكر «الله» ثم يذكر بلسان الخيال كلمة «لا» ويمدها من تحت الصرة إلى الجبين، وبعبارة أخرى يمد كلمة «لا»، من أسفل لطيفة الأخفى

فوق لطيفة الخفي إلى لطيفة النفس في الجبين، ثم من الوجه يمد كلمة «إله» إلى الثدي الأيمن إلى جانب لطيفة الروح ولطيفة الأخفى، ومن هناك يعيد كلمة «إلا» إلى ظهر الثدي الأيسر وهو محل لطيفة السر، وبعد ذلك يضرب بالتخيل بلفظ الجلالة (الله) بقوة النفس المحبوس على سويداء القلب حتى يظهر أثرها وحرارتها في سائر الجسد بحيث يحرق جميع الأجزاء الفاسدة في البدن بتلك الحرارة، فيتنور ما فيه من الأجزاء الصالحة بنور الجلالة .وبعد إكمال «لا إله إلا الله» بلسان الخيال وبالشكل الذي صورناه مرة أو ثلاث مرات أو أكثر، يقول في حال التنفس «محمد رسول الله». ويكون قصده في قلبه أنه لا موجود بحق يستحق العبادة إلا الله وأن العبودية هي هدف الذاكر. ويقصد من قوله: «لا إله» أن كل موجود فانٍ، ومن قوله «إلا الله»: أن الله باقٍ وحده.

ومن آداب الذكر: سواء كان ذكر الله أو ذكر لا إله إلا الله: أنه بعد الذكر يرتاح قليلًا، وفي هذه الاستراحة يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ولا أطلب من عبادتي سوى رضوانك، إني تخليت عن العالمين ولكن أرجو أن تهبني محبتك ومعرفتك. وعليه أن يتأمل بقلبه دون التفكير في الطلب المادي، وهذه المراقبة تسمى بـ «الوقوف القلبي».

الوقوف القلبي: وبمناسبة الحديث عن الوقوف القلبي أقول: إن للنقشبنديين إحدى عشرة مادةً، أو كلمةً، أو إحدى عشرة درجةً وعمودًا وقلنا سابقًا: إن الذي لا يتجاوز المقامات العشرة لا يبلغ درجة الفناء والبقاء. وهي عبارة عن: التوبة، الإنابة، الزهد، القناعة، الورع، الصبر، الشكر، التوكل، التسليم، الرضا. وهي ما تسمى أيضًا بمقامات اليقين. وبعد

اجتياز طريق السلوك، على السالك أن يتحلى بأحد عشر خلقًا وإلا لم يحصل على شيء، ثمانية منها مأثورة عن حضرة الشيخ عبد الخالق الغجدواني (575هـ)، وبعدها ثلاثة عن الشيخ الأكبر السيد محمد بهاء الدين النقشبند، والمجموع /11/ كلمة وهي: «**النظر إلى القدم، السفر في الوطن، الخلوة في الجلوة، الذكر الدائم، العودة من الذكر، اليقظة عند النفس، الحضور الدائم، حفظ آثار الذكر في القلب، والوقوف القلبي، والوقوف العددي، والوقوف الزماني**» لبهاء الدين النقشبند. وسنذكر معانيها. ويطلب السالك الفيض والرحمة من الله سبحانه متوجهًا إلى السماء رعايةً للأدب، لأن الله سبحانه فوق كل شيء ليس له مكان وليس له زمان.

وللوقوف القلبي شرطان: أولهما: يحاول أن لا يخطر على قلبه شيء من الخيالات. وثانيها: إن خطر على قلبه خيال توقف عن الذكر كاللجام، وجاهد لطرد الخيالات، ثم يبدأ بالذكر من جديد، ويسمى «بالتوقيف» ومن الأفضل توقف التنفس وقت الذكر حسب نصائح المرشدين. ومن هذه الحال تنشأ حرارة القلب، وشوق في الداخل، وتتولد المحبة، وتطرد الوسوسة، وتزال الحجب أمام السالكين شيئًا فشيئًا. ويتبين من هنا أن التصوف سلوكًا ينبغي المعرفة بميدانه.

الوقوف العددي: ويعني الوقوف العددي: أن يكون الذكر بالوتر، مرةً أو ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا، هي درجة للسلوك النقشبندي. وله أثر في كشف أسرار الطريقة. وعلى السالك أن يحاول أن يذكر «لا إله إلا الله» /21/ مرة بنفس واحد فإن فعله مع المراقبة والتحلي بالآداب التي

ذكرناها فإنه يحصل على ثمرات معنوية ويتطهر قلبه وتكشف له أسرار يحس بها، وقد ذكرناها، وإن لم تحصل هذه الثمرات فإنه لم يطبق شروطه، فعليه بالتفكير لاكتشاف الخطأ، وإن كان له مرشد فإنه يأخذ بيديه إلى لب عمله. ولا بد من العلم بأن هذه الشروط مثل الوقوف القلبي والعددي، أو التوقف عن التنفس وإمرار الذكر على اللطائف، تكون سهلة بعد الاعتياد عليها. كما أن الرياضة في بدايتها صعبة ثم يتمرن المرء عليها، فقد يكون من الصعب أن يرفع عشرة كغ أولًا، ثم يسهل عليه رفع مائة كغ، فإن الرياضة الروحية كذلك ولكن ثمرة الرياضة البدنية مادية، وثمرة العبودية هي رضا الخالق، وإن الرياضة البدنية تتعطل في عمر معين وبعد مدة، ولكن الرياضة الروحية تقوى وتكون مصباحًا للناس.

وإن الثمرة الأساسية لهذا الخلق هي التزكية كما هي الحال في ذكر «الله»، أي تزكية اللطائف إذ بذكر الله تتزكى اللطائف واحدة بعد الأخرى ويشع منها النور، وحيث إن هذا الذكر «**لا إله إلا الله**» يمر باللطائف كلها فإنها جميعًا تشرق بالنور معًا ويبدأ بالقلب أولًا، ثم تبدأ اللطائف الأخرى بالذكر ويشع نورٌ خاصٌ منها ويشعر بذلك السالك نفسه.

بعد أن ذكرنا الخطوة الأولى للنقشبندية وهي >الذكر< نأتي إلى الثانية وهي:

2ـ المراقبة:

وكل شرط ذكرناه للذكر فهو مطلوب للمراقبة أيضًا، كالتوبة والاستغفار وغيرها، وهي الاستعداد والجلوس في مكانٍ هادئٍ وطرد الخيالات عن القلب والتوجه إلى باب الحق، ويتضرع إلى ربه بكل مسكنةٍ وبكل عشقٍ

من الباطن دون واسطة المرشد أو الذكر، ويسأل الله أن يستمطر الرحمة والفيض والبركة على قلبه وباطنه وأن يشرق قلبه بنور وجهه. وحين يصبح التوجه إلى الحق ملكةً وخلقًا راسخًا، بسبب المواظبة ليلًا ونهارًا على هذه الحال، يصل إلى حالة تسمى في التصوف بـ«التوجه إلى المذكور لا الذكر» أي التوجه إلى صاحب الاسم وهو الله، لا الاسم وهو الذكر. وبهذا يتجلى نور ربه في قلبه وتتحقق الجذبة المشاهدة.

والجذبة: أي الانجذاب إلى الحق تتحقق عن طريق المراقبة بصورة أسرع من الذكر. ويقال أيضًا: إن المواظبة على المراقبة ترفع السالك المراقِب إلى درجة الوزارة المعنوية وهي أعلى الدرجات. ومن ثمرات المراقبة أن هذا السالك المراقِب يطاع في الملك والملكوت، ويكون عارفًا بالباطن وآمرًا على القلوب. ومن كان خلقه المراقبة فعليه ألاّ يغفل عن الذكر والعبادة وقيام الليل وأداء الصلوات. وقالوا أيضًا: إن الاقتراب من هؤلاء الصالحين هو سبب الفوز والنجاح. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. [التوبة: ١١٩]. وقد تُكشف أسرارٌ لكبار السالكين في حال المراقبة فيعرفون أوضاع سلوكهم. وهذه معنى المراقبة الخاصة في الطريقة النقشبندية، وقد بيّنّا سابقًا المعنى الآخر للمراقبة في التصوف وهو مراقبة النفس وكبح جماحها، بيَّنا اثنين من الطرق الثلاثة التي على السالك اتباعها للوصول إلى غايته وهي:

ــ الذكر.

ـ المراقبة.

والآن نبين السبيل الثالث وهو:

3ـ طاعة المرشد:

أي أن يكون السالك تلميذًا لمرشدٍ كاملٍ، مطبقًا لتوجيهاته بإخلاصٍ وأدبٍ، كما هو الحال لتلميذٍ يتلقى العلم من أستاذه. وقال كبار علماء التصوف: إن هذا السلوك أسهل وهو أقرب لنيل الغاية ويسمى ذكر «**الرابطة**»: وهو عبارة عن مواصلة العلاقة القلبية مع الله سبحانه، فمن كان له مرشد فإن هذه العلاقة تتم عن طريق قلب المرشد. **وكيفية ذلك**: أن قلب السالك هنا يتعلق بقلب المرشد الذي لاشك في أنه نوراني ويشرق فيه نور الله سبحانه، ونوره سبحانه مصدر الأنوار. وإن نور الحق يشرق دائمًا في قلب محمد ﷺ كالكهرباء التي تتوزع في الجهات كلها، وكالنهر الذي تتوزع جداوله في كل الأنحاء ولكل جدولٍ العشرات من المزارع والآلاف من الأشجار التي تُروى بها. وكذلك يتوزع الفيض والماء الزلال على العاشقين المحبين لكي تُروى مزارع قلوبهم بهذا الفيض والبركة وتُثمر ثمراتها الطيبة. والمرشد الكامل يحصل على نصيبه من هذه البركة ويوزعه على المريدين.

ولا بد من بيان أن هذه العلاقات هي روحية ومعنوية، ولا تدرك إلا بعين البصيرة، ذلك أنها ليست بقنوات فيها المياه تجري ولاهي علاقات مادية. فإذا ما استقرت الرابطة وتمكن المريد من ترسيخ هذه العلاقة فإنه يستمد النور والبركة منها، ويكون لهذا النور انعكاسات من اللطائف

فتتزكى واحدة بعد الأخرى. وتعالج العلل والأمراض واحدة بعد الأخرى، كعلة الحسد، ومرض الغرور، وطول الأمل، والتهالك على جمع المال، والأمراض المعنوية الخبيثة الأخرى، وعندما يتزكى باطن السالك من الغش ويشتعل نور الحق في اللطائف، وتبدأ اللطائف بالذكر، فإن المريد يصل إلى حالة الحضور والمشاهدة وهي الأمل المنشود، وبهذه الخطوة يطمئن قلبه وباطنه وتبدأ مرحلة «الأنفس» أي التوجه نحو مرحلة الفناء للوصول إلى منزلة البقاء.

وفي مبحث الذكر أشرت إلى أن السالك يبدأ بالذكر القلبي حتى يصبح قلبه ذاكرًا، ثم يبدأ بالتنقل من ذكر لطيفة إلى ذكر لطيفة أخرى، ولكنه في هذه الحال يعينه المرشد بالتوجه إليه. **وكيفيته**: يتوجه بقلبه إلى إحدى لطائف السالك ويربطها بلطائفه، ولا ريب في أن لطيفة المرشد ذاكرة ونورانية، فتنعكس على لطيفة السالك فتصبح ذاكرة ونورانية، وبعد أن يستقر وضع السالك بعد مهلة في اللطيفة الواحدة، يتوجه المرشد إلى لطيفة أخرى لمريده لمهلة قصيرة، وإذا كان للمريد شيء من الاستعداد لما يتحلى به من الذكاء فسرعان ما يصل إلى الغاية وتتزكى لطائفه، وكذلك فيما يتعلق باجتياز المقامات حتى يصل إلى مرحلة الفناء والبقاء. وفي هذه المرحلة يستغني عن المرشد ويكون كاملًا بالمعنى النسبي «والكمال المطلق لله وحده» ويرفع الله درجاته ما دام الله سبحانه يريد علو منزلته، كما أنه ليس للعلم الظاهري المادي حدود، وإن العالم يظل يطلب العلم ليزداد علمه، وكذلك الغني يطلب مزيدًا من الغنى، وكذلك ليس للطف الله حد والإنسان الكامل الذي بلغ قمة الإنسانية هو سيدنا محمد ﷺ ويليه من

بعده الأنبياء ثم الأولياء. وفي عرف التصوف: يعتبر السالك الذي منح درجة البقاء بعد الفناء إنسانًا كاملًا، وهذه الدرجة كالدكتوراه في العلوم الدنيوية وغيرها فيصبح أستاذًا ومرشدًا في سلوكه.

ولابد من التنبيه هنا على أشد ما يخاف منه في الطريقة النقشبندية: هو أن يأذن المرشد لمريديه بالرابطة دون أن يكون قد وصل مرتبة البقاء بعد الفناء. وهي خطيئة كبيرة لأنها قد توقعه في شبهة الشرك أولًا، ويكون المرشد مسؤولًا عنها، وتوقع المريد ثانيًا في أمراض الوسوسة ومصائب أخرى عديدة، فالإرشاد شيءٌ، وإجازة الرابطة شيءٌ آخر. والإرشاد بمعنى: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» واجب على كل مسلم، والإرشاد للشريعة واجب علماء الدين، وبالنسبة للطريقة فعلى المرشد أن يصارح مريديه قائلًا: إني أنصحكم وأرشدكم إلى التوبة ولكني لست بمرشد كامل ولا يجوز لكم الرابطة معي. أو يقول كما قال: (الأمير كلال) لتلميذه سيدي بهاء الدين نقشبند: إن حدود معرفتي هنا وعليك البحث عن مرشد آخر يعلمك بعدي. وليس المقصود بالتوجه أن يكون المرشد متصلًا بالمريد في المكان، ذلك أن المرشد الكامل يستطيع التوجه إلى مريده من مكان بعيد أيضًا ويدخل في قلبه المسرة الروحية ولكن القرب المكاني أفضل وكما قلت: إن التقرب من الصادقين سبب السعادة والفوز. فالرجل الصالح الولي حبيب الله والاقتراب من حبيب الله هو سبب لسعادة الدارين. فعلى المريد أن يطلب المساعدة من مرشده. قال الشيخ عبد الله الدهلوي: مع أن الذكر اللساني لا يحقق أهداف السالك ما لم يتحول إلى ذكرٍ قلبيٍّ ويصبح مَلَكَةً وخُلُقًا راسخًا، فإن الذكر اللساني مفيدٌ ويكون للذاكر حظوةً

روحيةً معنويةً إن تم حسب الشروط المذكورة. ثم قال: على المريد أن يظل ذاكرًا لله متذللًا أمام باب الحق حتى في أوقات انشغاله بالأعمال الدنيوية، وقال: بركات من الله تنزل ولكن لقلوب المؤمنين تعجل. وهذه تسمى حال «الخلوة في الجلوة» ومعناها أنه مع الحق ولو كان مع الخلق، وهذا معنى ما قيل: الصوفي كائن بالجسم كائن مع الناس وبالروح كائن عنهم.

«والخلوة في الجلوة» إحدى صفات ودرجات السالكين للطريقة النقشبندية. وقد بيّنّا سابقًا أن أمراض القلب هي الصفات الخبيثة كالحسد والحقد وغيرها من الأمراض، والمسلم الحقيقي من طهر قلبه من هذه الأمراض، وعندما يكون للسالك مرشد فإنه يتولى معالجة هذه الأمراض وتخليص قلب مريده منها. وإن طَبّق السالك آداب الذكر المعروفة وتمسك بذكر «لا إله إلا الله» سهل عليه معالجة أمراضه القلبية. وحين يقول: «لا إله» يتخيل معه طرد الحسد، وأن لا حسد في قلبه ولاشيء في قلبه «إلا الله» فيشعر بنظافة قلبه من الحسد، وهكذا الأمر بالنسبة لكل رذيلة. ومن الناس من ليست له بعض الرذائل كالكذب والكبر مثلًا، فيحقق في حال نفسه وما فيها من الرذائل. وبهذا النوع من الذكر يطهر قلبه منها.

ويقول في بعض الأحيان معترفًا في قلبه: إني مبتلىً بهذه الرذيلة فجنبني منها فيتخلص منها واحدة بعد الأخرى ببركة هذا الذكر. وهذا التطهير القلبي والتزكية، وإشراق اللطائف، والتنقل من خطوة إلى أخرى وهي سبع خطوات تسمى: «السفر في الوطن» أي الارتحال قلبيًا من مركزٍ إلى مركز حتى تتطهر جميعًا، وهو أيضًا التأمل في النفس لكشف الأمراض

لمعالجتها، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. [الذاريات:٢١]. والصوفي في هذه المرحلة يعيش مع الذكر ويترك كل شيء عدا ذكر ربه، وكما قالوا: كل شيء ماعدا ذكر الله سبحانه نزع للروح ولو كان طعام السكر. وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. ومن حصل على بركةٍ معنويةٍ وأحس بها فعليه العمل للمحافظة عليها، فإن ذهبت عاد إلى الذكر إلى أن يستعيد البركة وتصبح البركة حالًا دائمًا، وخلقًا مستمرًا.

والمريد المبتدئ يرى شعاع النور في قلبه ولكنه يذهب ولا يستقر، ويتكرر حتى يألف ويستقر في القلب. وبعد هذا نأتي إلى «**جذبة القبول**»: وهي اسم للسالكين يُطلق عليهم عندما تتوجه إليهم حالة خاصة فينجذبون فيها إلى ربهم، فيكون السالك محمودًا عند ربه، فإن نضجت الجذبة وظهرت تسري بين حنايا قلبه فيوضات إلٰهية يحس بها السالك المجذوب فتتلذذ روحه ويُسَر وقد يسعد بها السالك سعادة تفقده وعيه. فإن استدامت هذه الحالة فإنه يقرب من حالة الحضور والفناء وهذه الحالة تسمى «حقيقة الذكر» لأنه من المرحلة الأولى لهبوب البركة كانت الصورة، ومن حالة الحضور تكون الحقيقة، وتسمى هذه الحال: (درج النهاية في البداية) أو اندراج النهاية في البداية، وهذه لا تحصل في يوم أو مرة، ولكل شيء وقته ومدته وحسابه.

أما الثمار الطيبة المتنوعة للَّطائف ولكل عبادة كالتهجد وقراءة القرآن الكريم فإنها لا تعد ولا تحصى، وقد ذكر الإمام الرباني في مكتوباته البركات الخاصة لكل حالة وفي الطرق الصوفية العديدة، فإنه كان مرشدًا للطرق: القادرية، والسهروردية، والجشتية، والكبروية،

بالإضافة إلى كونه من كبار مشايخ النقشبندية. قال الشيخ عبد الله الدهلوي: بركة الصالحين قد تنزل كضياءٍ من الشمس فتدخل القلب في زاوية، وقد تكون كسحابٍ يعم جوانب القلب، أو كصبٍّ لطيفٍ، أو كمطرٍ، أو نهرٍ، أو كخيمةٍ من حريرٍ تشمل البدن كله، أو كالندى الذي ينزل على القلب. وقال أيضًا: قد يحصل الشوق والدفء الروحي لسالكي الطريقة الجشتية، ويحصل الصفاء واللمعان لسالكي الطريقة القادرية، ويحصل لسالكي الطريقة النقشبندية الغياب وفقدان الوعي، أما السهروردية فآثارها هي آثار النقشبندية نفسها. هذه قطرةٌ من بحر التصوف. وباقة وردٍ من حديقة غناء تشمل الأرض كلها، أردت بها بيان قدر منه لكم لا الإحاطة به، فإن عالم التصوف في حقيقته هو عالم معرفة الله سبحانه، وهو عالم لا نهاية له ولا حد له لا في أوله ولا في أخره.

أوراد السادة النقشبندية:

للسادة النقشبندية وردان «عام وخاص».

أولًا: الورد العام:

أستغفرُ اللهَ العظيمَ وأتوبُ إليه. (100 مرة) يوميًا.

أستغفرُكَ اللهمَّ إنك كنتَ غفَّارًا. (100 مرة) يوميًا.

اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمدٍ بعددِ حسناتِ سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلِّم (من 100 إلى 300 مرة) يوميًا ما عدا يوم الجمعة وليلته، وفي ليلة الجمعة أي بعد المغرب يقول: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمدٍ النبي

الأميِّ الحبيب، العالي القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم، في كل لمحةٍ ونفسٍ بعدد كل معلومٍ لك. (من 100 من إلى 300 مرة)، وفي يوم الجمعة يقولها (من 300 إلى 1000 مرة) في اليوم فأكثر.

لا إله إلا الله (100 مرة) في اليوم فأكثر.

قراءة جزء من القرآن أو ما تيسر، وقراءة الواقعة بعد المغرب، وتبارك بعد العشاء يوميًا، والكهف والدخان ليلة الجمعة ويومها.

ثانيًا: الورد الخاص:

يصلي ركعتين في غير وقت الكراهة، أي: لا بعد الصبح ولا بعد العصر.

ثمّ يجلس متوجهًا إلى القبلة ويقول: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه (25 مرة).

ثمّ يقول: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمدٍ بعددِ حسنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (25 مرة).

ثمّ يقرأ: قل هو الله أحد (3 مرات)؛ والمعوذتين؛ والفاتحة (مرةً مرةً).

ثم يقول: اللهمَّ أوصل ثواب ذلك إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وإلى شيخنا العارف بالله محمد أديب حسون قُدسَ سِرُّهُ وإلى بقية رجال السلسة النقشبندية رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ثمّ يأخذ الرابطة: وهي أن يتصور أنه قد مات ويغسل ويكفن ويصلى

عليه ويدفن وذلك مقدار دقيقتين أو أكثر. أو يتخيل أنه بين يدي شيخه ويأتيه المدد والنور إلى قلبه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة شيخه. وأي الرابطتين أخشع له فليفعلها.

ثمَّ يأخذ المسبحة ويضعها تحت ثديه الأيسر فوق القلب بأصبعين، ويأخذ من المسبحة حبة حبة، ويضع لسانه في سقف حلقه، ويلاحظ قلبه يقول: (الله الله الله) عند كل حبة، وعند المئة يقول بلسانه: (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي). ولا مانع من تحريك اللسان في البداية إلى أن يتحرك القلب بالذكر.

تمام الورد خمسة آلاف، ولكن لا بأس أن يتمرن على ذلك على مراحل، بأن يجعل ورده أولًا ألفًا مدة أسبوع ثمَّ يزيده حسب نشاطه إلى أن يبلغ تمام الورد، ولا يزيد إلا بإذنٍ خاصٍ من الشيخ المربي.

إذا فرغ من الورد فليذكر بقلبه من غير مسبحة مقدار دقيقة أو أكثر، ثمَّ يقرأ الفاتحة ويدعو بما ييسره الله عليه بالفتح والقبول ويقظة القلب الدائمة.

المواظبة على هذا الورد ولو في الطريق والسوق يجعل القلب دائمًا في اليقظة وله نورٌ عظيمٌ.

من الأمور الهامة جدًا في الطريق والمقربة للفتح والميسرة له كتم النَفَس مع إغلاق الفم والأنف، وأن يقول في النفس الواحد في قلبه (من 7 إلى 21 مرة) لا إله إلا الله، والأفضل أن يتخيل ويتصور أن ابتداء

كلمة (لا) من السرة وهي محل لطيفة السر، إلى القلب مارًا بها إلى لطيفة الخفي **فوق القلب، واصلًا بها إلى الجبهة والناصية وهي محل لطيفة النفس** الناطقة، وكلمة (إله) تبدأ من الجبهة مارًّا بها إلى فوق الثدي الأيمن وهو محل لطيفة الأخفى، نازلًا بها إلى أسفل الثدي الأيمن وهو محل لطيفة الروح واصلًا بها إلى أوسط الصدر وهو محل لطيفة سلطان الأذكار، وكلمة (إلا الله) من وسط الصدر (من سلطان الأذكار) إلى القلب.

الختم عند السادة النقشبندية:

للسادة النقشبندية إذا أرادوا الانصراف من مجالس الذكر والعلم ختمان.

الختم العام:

وذلك عند حضور جمع كبير من الناس وهو الختم المعهود إذا أطلق، وهو منسوب لسيدي عبد الخالق الغجدواني رضي الله عنه.

وأركانه عشرة:

الأول: الاستغفار خمسًا وعشرين مرةً، وينبغي أن يقرأ قبله هذا الدعاء: (اللهم يا مفتح الأبواب، ويا مسبب الأسباب، ويا مقلب القلوب والأبصار، ويا دليل المتحيرين، ويا غياث المستغيثين أغثني، توكلت عليك يا ربي، وفَوَّضت أمري إليك، يا فتاح، يا وهاب، يا باسط، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين).

الثاني: رابطة الشيخ كما تقدم في الذكر.

الثالث: قراءة الفاتحة سبع مرات.

الرابع: اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد صلاةَ وسلامَ أهلِ السماواتِ والأَرَضِين عليه، عَدَدَ ما عندَ الله من العَدَد، في كلِّ لَمْحَةِ عينٍ مِنَ الأَزَلِ إلى الأَبَد (100) مرة.

الخامس: قراءة سورة ألم نشرح مع البسملة تسعًا وسبعين مرة.

السادس: قراءة سورة الإخلاص ألف مرة وواحدة.

السابع: قراءة سورة الفاتحة سبع مرات.

والثامن: قراءة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ – ١٢٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، سمعنا ولله أطعنا: (اللهم صلِّ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد بِعَدَد كُلِّ داءٍ ودَوَاءٍ وبارِكْ وسلِّم عليه وعليهم كثيرًا) (100) مرة.

العاشر: أهدي ثواب ما قرأت إلى حضرة سيدنا محمد ﷺ وإلى أهل العَبَا، وإلى سيدي العارف بالله المرحوم الشيخ محمد أديب حسون، وبقية رجال السلسلة النقشبندية رضي الله عنهم أجمعين، ثم تدعو بهذا **الدعاء: اللهم اجعلني وأحبابي من المحسوبين عليهم، ومن المنسوبين** إليهم،

ووفقنا لما تحبه وترضاه يا أرحم الراحمين، اللهم أجرنا من الخواطر النفسية، واحفظنا من الشهوات الشيطانية، وطهِّرنا من النقائص البشرية، وصفِّنا بصَفَاءِ المحبَّة الصِّدِّيقية، وأرِنا الحقَّ حقًا وارزقنا اتباعه، وأرِنَا الباطلَ باطلًا وارزقنا **اجتنابه يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك أن تحييَ قلوبَنا وأرواحَنا** وأجسامَنا بنورِ معرفتِكَ ووصلِكَ وتجلياتِكَ دائمًا باقيًا هاديًا يا الله.

اللهم لك الحمد يا مَنْ بنورِ جمالِه أضاءَ قلوبَ العارفين، وبهيبةِ جلالِه أحرقَ فؤادَ العاشقين، وبلطائِفِ عنايته أكرم الواصلين، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الختم الخاص وهو لسيدي محمد بهاء الدين نقشبند: وهذا الختم خاص للأفراد والعدد الأقل، أو لدفع الشدائد والكربات، وهو منسوب لسيدي محمد بهاء الدين الشاه نقشبند قدَّس اللهُ سرَّه وهو التالي:

أولًا: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه (25) مرة.

ثانيًا: الرابطة على النحو المتقدم في الورد الخاص.

ثالثًا: اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد صلاةَ وسلامَ أهلِ السمواتِ والأَرَضِين عليه، عَدَدَ ما عندَ اللهِ مِنَ العَدَد، في كلِّ لَمْحَةِ عينٍ مِنَ الأَزَلِ إلى الأَبَد (100) مرة.

رابعًا: اللهم يا خفي الألطاف أدركني بلطفك الخفي (500) مرة،

أو: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ولا مَنْجَى مِنَ اللهِ إلا إليه (500) مرة، أو الجمع بينهما إن كان العدد يساعد على ذلك.

خامسًا: قراءة قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾. [التوبة:129/128]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾. [الأحزاب:56].

سمعنا ولله أطعنا: (اللهم صلِّ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد بِعَدَد كُلِّ داءٍ ودَوَاءٍ وبارِكْ وسلِّم عليه وعليهم كثيرًا).

سادسًا: أهدي ثواب ما قرأت إلى حضرة سيدنا محمد ﷺ وأهل العَبَا وإلى سيدي العارف بالله المرحوم الشيخ محمد أديب حسون، وبقية رجال السلسلة النقشبندية رضي الله عنهم أجمعين.

سابعًا: الفاتحة إلى أرواح من تقدم وبعد الفاتحة تقول: اللَّهُمَّ بسر هذا الختم الشريف ـ وما تَحَصَّلَ فيه من خَيْرٍ ـ فرِّجْ عني وعن أحبابي والمؤمنين الكروبَ، وارفعِ الشدائدَ، واقضِ الحوائج، يا رب العالمين.

شجرة الطريقة النقشبندية المباركة التي يتصل مددها بمن يواظب على ورده:

مدد الطريق ونوره من حضرة الحق جلَّ وعلا ربِّنَا وربِّ السماوات والأرض، إلى سيدنا جبرائيل بريد الحضرة الإلهية عليه السلام، إلى سيدنا محمد رسول الله وحبيب الله صلوات الله وسلامه عليه، إلى خليفة رسول الله ، الأول سيدنا أبي بكر الصّديق، إلى سيدنا سلمان الفارسي، إلى سيدنا الشيخ القاسم بن محمد بن أبي بكر، إلى سيدنا جعفر الصادق، إلى أبي الفيض سيدي أبي يزيد البسطامي طيفور بن عيسى، إلى سيدنا الشيخ أبي الحسن الخارقاني، إلى سيدنا الشيخ أبي علي الفارمدي، إلى سيدنا الشيخ يوسف الهمداني، إلى سيدنا الشيخ عبد الخالق الغجدواني، إلى سيدنا الشيخ عارف الريو كوي، إلى سيدنا الشيخ محمود إنجير الفغنوي، إلى سيدنا الشيخ علي الرامتيني، إلى سيدنا الشيخ محمد البابا السماسمي، إلى سيدنا الشيخ الأمير محمد كلال، إلى سيدنا الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند، إلى سيدنا الشيخ علاء الدين العطار، إلى سيدنا الشيخ يعقوب الجرخي الحصاري، إلى سيدنا الشيخ عبيد الله أحرار، إلى سيدنا الشيخ محمد الزاهد، إلى سيدنا الشيخ الدرويش محمد، إلى سيدنا الشيخ محمد الإمكنكي، إلى سيدنا الشيخ محمد الباقي، إلى سيدنا الشيخ أحمد الفاروقي الإمام الرباني مجدد الألف الثاني، إلى سيدنا الشيخ محمد المعصوم، إلى سيدنا الشيخ سيف الدين، إلى سيدنا الشيخ محمد البدواني، إلى سيدنا الشيخ حبيب الله جان جانان مظهر، إلى سيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي، إلى سيدنا الشيخ مولانا خالد ضياء الدين العثماني ذي الجناحين، إلى سيدنا الشيخ الكبير أحمد طوزقلي، إلى سيدنا الشيخ محمد سليم خلف، إلى سيدنا الشيخ محمد أبي النصر خلف، إلى سيدنا العارف بالله تعالى الشيخ محمد النبهان، إلى سيدنا العارف بالله تعالى الشيخ محمد أديب حسون، رضي الله عنهم أجمعين، إلى العبد الفقير إليه تعالى محمد عادل عزيزة الكيالي، غفر الله لهم ولوالديهم

ولذريتهم وأحبابهم أجمعين.. آمين.

ومن طريق آخر: من الشيخ محمد أبو النصر خلف، إلى ولده الشيخ عبد الباسط خلف رحمه الله تعالى، إلى العارف بالله تعالى سيدنا الشيخ محمد أديب حسون رضي الله عنهم أجمعين، إلى العبد الفقير إليه تعالى محمد عادل عزيزة الكيالي غفر الله لهم ولوالديهم ولذريتهم وأحبابهم أجمعين..

صورة إجازة شيخنا سيدي محمد النبهان لسيدي ومولاي الشيخ محمد أديب حسون رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد حبيب رب العالمين وسيد النبيين المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد . فقد درج أهل العلم والطريقة رضي الله عنهم أجمعين . بالإجازة عند بروده غير الأهلية لتبقى العلم بإخوته وتوارثه بصفوته لتكون سلسلة العلم والطريقة موصولة بالسادات الأسياد حبيبنا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحصول البركة والنورية بالحضرة المحمدية المطهرة . هذا وليكون لنا شرف الإتصال بالعلم بالرجال السلسلة النقشبندية . وليكون لنا الإذن الباقي بمتابعة جهاد معالم السير والسلوك إلى الله تعالى . لذلك فقد أذنت لولدنا الشيخ محمد أديب حسون بتربية المريدين على الآداب والسنة وإدارة حلقة السادة النقشبندية والقيام بالذكر . كما أذنه في تلقين الشيخ محمد أبو النصر خلف . رحمه الله تعالى ورضي عنه . عن والده وشيخه الشيخ محمد سليم خلف . عن شيخه الكبير الشيخ محمد علوة قلي عن شيخه ذي الجناحين . مولانا خالد ضياء الدين النقشبندي عن شيخه الشيخ عبد الله الداغستاني . عن شيخه الشيخ جميل الله جان جانان مظهر عن شيخه الشيخ محمد البيدواني عن شيخه الشيخ سيف الدين عن شيخه الشيخ محمد المعصوم عن شيخه الشيخ محمد بهاء الدين البخاري عن شيخه الشيخ محمد بارسا عن شيخه الشيخ محمد الفاخر عن شيخه الشيخ محمد الباخ عن شيخه الشيخ محمد الأمكنكي . عن شيخه الشيخ الدرويش محمد عن شيخه الشيخ محمد الزاهد عن شيخه الشيخ عبيد الله أحرار عن شيخه الشيخ يعقوب الجرخي الصارفي عن شيخه الشيخ علاء الدين العطار عن شيخه الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند . عن شيخه الشيخ السيد أمير كلال عن شيخه الشيخ محمد بابا السماسي عن شيخه الشيخ علي الرامتيني عن شيخه الشيخ محمود الأنجير الفغنوي عن شيخه الشيخ عارف الريوكري عن شيخه الشيخ عبد الخالق الغجدواني عن شيخه الشيخ يوسف الهمداني عن شيخه الشيخ أبو علي الفارمدي عن شيخه الشيخ أبي القاسم القرغاني عن شيخه الشيخ أبو الحسن الخرقاني عن شيخه الشيخ أبو يزيد البسطامي طيفور بن عيسى عن شيخه سيدنا جعفر الصادق عن شيخه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عن شيخه سيدنا سلمان الفارسي عن شيخه خليفة رسول الله الأول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين . عن سيدنا رسول الله وحبيب الله صلوات الله وسلامه عليه . عن سيدنا جبرائيل عن رب العزة الهيبة الجليلة عليه السلام . عن عزة جل وعلا رب السماوات والأرض . هذا وإني أوصيه بتقوى الله في السر والعلن عن حب أهل البيت النبوة وآله الأطهار بقصد الجد والنصح للجميع . وأوصيه بتوقير حملة القرآن وأهل العلم والعمل عامة وأهل الخاصة من سادتنا الصوفية قدس الله أسرارهم وعلى رأسهم الإمام الرباني والغوث الصمداني سيدي وأوصيه بمجاهدة النفس دائماً وإزالة ما يعترض عليك من أغيار حتى الله تعالى الذي يتزكيهم لنفوسهم ومحاسبتها على الصغير والكبير من الأمور . هذا وإنه ما ورد في هذه الإجازة المباركة ينوه في الإجازة التي أوصينا الأخ الشيخ عبد اللطيف أبو النصر بها شيخنا الشيخ محمد أبو النصر بإعطائها لولدنا الشيخ محمد أديب بن محمد حسون والتي مرت موافقتنا وتوقيعنا عليها . كما أوصيه يا ولدي بالمحافظة على طريقة والدك في الدعوة إلى الله تعالى لأنه سر أبناء هذه الطريقة العلية وعليك يا ولدي بعلو الهمة ومحبة الحبيب والله يتولاك ويرعاك ويهديك إلى طريق عباده الصالحين . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

الخادم إلى الله تعالى
محمد النبهان

السيد جمال الدين الحسيني
المولود في حزيران ١٩٣٧

لقد تم منح هذه الإجازة المباركة والتوقيع عليها من قبل العارف بالله تعالى السيد سيدي ومولاي الشيخ محمد النبهان رضي الله عنه إلى الأخ الفاضل الشيخ محمد أديب حسون حفظه الله ونفع الله المسلمين بعلومهم وأعمالهم آمين.

الشيخ منذر الباني
عرسال

التوقيع والختم
في ٤ ذي القعدة ١٤١٧
٤ آذار ١٩٩٧

صورة إجازة سيدي ومولاي العارف بالله الشيخ محمد أديب حسون رضي الله عنه للعبد الفقير (محمد عادل عزيزة الكيالي).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم المتفضل ولي النعم ظاهرها وباطنها والصلاة والسلام على سيدنا محمد القاسم للخيرات الإلهية عليه والتي جاءته من العطاء الإلهي والتفضل (وأنا أناكم والله معطي) وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد ما في علم الله وعلى آله وصحبه وبعد فقد درج أهل العلم بأحكام الشريعة وأهل السير والسلوك في مقامات الطريقة أن يأذن شيخ العلم لتلميذه بالتعليم والدرس وشيخ التربية والسلوك في مدارج السلوك بإعطاء المجاز له بإعطاء الذكر وإقامة الأوراد وما استجرها ولذلك لتبقى سلسلة العلم والطريقة مربوطة ببعضها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه إلى جبريل ومنه إلى الحضرة القدسية الإلهية وبوجود هذا الربط يبقى الجد متصلاً إن شاء الله مد المريد إلى آخر السلسلة المنورة فيعم الجميع فضل الله وكرمه. لذلك أقول وإلى الله أكون وراء وراء هؤلاء السادة ولكني محب ومعتقد بهم أنهم تفضلوا علي فأجازني شيخي العارف بالله الشيخ محمد البزاطي ابن شيخي الأول الذي كان روحي عليه وحية من قلب أنوار الذكر وقدس الطهر الشيخ محمد المواز الطهر رحم الله شيخي عليه أجازني كلاهما الشيخين الطاهرين الشيخ محمد البزاطي والشيخ عبد الباسط بن الشيخ أبي النصر بأن ألقن الذكر القلبي المعروف لدى أهل الطريقة والأوراد المختصة لذلك وأوصياني بتقوى الله والإخلاص في العلم والعمل والتعليم وبما إلى تفرست ورأيت وعلمت منه مصاحبة أخينا في الله تعالى الشيخ عادل عزيزة الله لنا علماً جيداً صحيحاً وقد أخذ الورد وكان واظب عليه فأنتج له روحانية جيدة وذوقاً حسناً لذلك أجزته بما أجازني به شيخي آملاً منه تعالى الله ينفع به عباده ويجعله علماً من أعلام العلم والسير والسلوك وأنه يحشرني وإياه مع سادتنا أهل العلم والطريقة تحت لواء سيد المرسلين وأولادنا وأحبابنا أجمعين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ما أشرق وبارق وغرد طائر وسبح وحمد الله تعالى كل مخلوق والحمد لله رب العالمين

العبد الفقير إلى الله تعالى محمد أديب حسون

٤١/ ربيع الثاني ١٤١٦

ملحوظة: وأوصيه بما أوصياني به وبجد وإخلاص لوجه الله تعالى وعلى سبيل النفس على سيرها

رابعًا: البيعة:

البيعة في مفهومها اللغوي: إعطاء شيء مقابل ثمن معين. أو إعطاء العهد بقبول ولاية أو خلافة.

وأما البيعة في مفهومها الإسلامي العام: فهي كلمات تعبر عن نيةٍ وعزيمةٍ على الوفاء والأداء، ويصحب ذلك بسط يدٍ ومصافحةٌ توثق ذلك كله، ليتم العهد قلبًا بقلبٍ، ويدًا بيدٍ. ومن هنا جاء التعبير: ولا تنزعوا يدًا من طاعة، وكذلك في بيعة العقبة قال القوم: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. فالبيعة: تعهد بالوفاء وتوثيق له.

والبيعة مع الله: عقد شراء نفس ومال يقدمها الإنسان فينال من ربه الجنة، فتصبح بذلك هي الفوز العظيم. ولقد اقترن الدخول في أي طريقة صوفية باتباع سنة البيعة المحمدية، وتعدّ البيعة الخاصة عند أهل الطريقة ركنًا أساسًا من أركان السير والسلوك، ولعلها أهم الأركان، وذلك لأنها الباب الذي يلج من خلاله المسلم إلى مدينة العلم الروحي المحمدي ﷺ، ولكي تتضح هذه الحقيقة، حقيقة البيعة الخاصة ومكانتها في حياة المسلم الروحية سنذكر البيعة بمفهومها العام في الإسلام.

بنود البيعة في الطريقة وأهميتها:

إن البيعة في الطريقة الصوفية تعني المعاهدة بين طرفين: المريد والشيخ، وتنص بنود هذه المبايعة أو المعاهدة اختصارًا على أن يلتزم المريد بمنهج الشيخ المرشد في تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة، في مقابل أن ينور الشيخ للمريد الطريق ويعينه بقاله وحاله على الوصول إلى مبتغاه، فالبيعة بهذه الصور تمثل ـ

في لغة العصر ـ مستمسكات التسجيل في المدرسة الصوفية، وكما أن كل مؤسسة أو دائرة تتميز بطريقة خاصة للتسجيل فيها، فتطلب كل واحدة، مستمسكات خاصة بها لتضمن الحقوق للطرفين، فكذلك المدارس الصوفية، فإن كل مدرسة أو طريقة صوفية قد تتميز بأسلوب أو طريقة خاصة للتسجيل فيها والدخول بين صفوف طلابها الذين يسمون بالمريدين.

فاتّخَذَ المشايخُ من أسلوب البيعات الإسلامية في العصر الأول سنداً لهم في قبول المريدين بين طلاب طرقهم أو مدارسهم الصوفية.

قال الشيخ محمد مهدي الرواس الرفاعي في «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر»: يا ولدي: لا يصح طريق القوم إلا على هذا المنوال، وإن لم يربط اليد بيد الشيخ، ويعاهده على الصفا والوفا، فليس بذي يد ولا عهد، ومن لم يحصل على مقام صاحب طريقته بخلق، وعلى قلبه بفيض، فليس بذي مقام ولا قلب، ومن لم ينتفع بهدي رسول الله ﷺ وأدب شريعته، فليس بذي هدىً ولا أدب.

وكيف يكون الفقير فقيرًا، بلا يد ولا عهد ولا مقام ولا قلب ولا هدىً ولا أدب؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. [الفتح: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذا الأدب لا سواه، فألزمت آية اليد الخشية، وألزمت آية العهد

الوقوف عند الحد، وألزمت آية المقام الوقوف مقام الشيخ السابق والطلب من حيث طلب، وألزمت آية الهداية سلوك ما يوجب لك الحب، وعرفتك آية الاتباع أن أدبك بصحة اتباع نبيك هو ما يوجب لك الحب ويقربك من الرب عز وجل، وهو غاية الطريق ونهايته، وعلى ذلك بايعت الله تعالى والحمد لله، يد وعهد ومكثت في المقام مع القلب السليم ونيل الهدى بالأدب مع طريقة القوم من بدء الطريق إلى أقصى النهاية فالزم واضح السبب.

أنواع البيعة:

وقال الشيخ ولي الله الدهلوي في رسالة له في البيعة:

البيعة على أقسام: منها بيعة الخلافة، ومنها بيعة الإسلام، ومنها بيعة التمسك بحبل التقوى، ومنها بيعة الهجرة والجهاد، ومنها بيعة التوثق في الجهاد. وقال أيضًا: **البيعة المتوارثة بين الصوفية على وجوه:**

أحدها: بيعة التوبة من المعاصي.

والثاني: بيعة التبرك في سلسلة الصالحين بمنزلة سلسلة إسناد الحديث، فإن فيها بركة.

والثالث: بيعة تأكيدٍ للعزيمة على التجرد لأمر الله، وترك ما نهى عنه ظاهرًا وباطنًا، وتعليق القلب بالله تعالى، وهو الأصل.

وأما الأوَّلان: فالوفاء بالبيعة، فهما ترك الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، والتمسك بالطاعات المذكورة من الواجبات والسنن الرواتب.

وأما الثالث: فالوفاء، البقاء على هذه الهجرة والمجاهدة، حتى يكون

متنورًا بنور السكينة، ويصير ذلك دينًا له وخلقًا وجبلةً، وعند ذلك قد يرخص له فيما أباحه الشرع من اللذات والاشتغال ببعض ما يحتاج إلى طول التعهد، كالتدريس والقضاء وغيرهما والنكث بالإخلال في ذلك.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي ﷺ في «عنقا مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب»: المبايعة لا تقع إلا على الشرط المشروط، والعقد الوثيق المربوط، وكل مبايع على قدر عزمه ومبلغ علمه، فقد يبايع شخص على الإمامة وفي غيره تكون العلامة، فتصبح المبايعة على الصفات المعقولة لا على هذه النشأة المجهولة، فيمد عند تلك المبايعة الخليفة الناقص في ظاهر الجنس الخليفة المطلوب يده من حضرة القدس، فتقع المبايعة عليها من غير أن ينظر ببصره إليها، ولذلك يقع الاختلاف في الإمام المعين لا في الوصف المتبيِّن، فقلَّ خليفة تجمع القلوب عليه، ولاسيما إن اختل ما بين يديه، فقد صحت المبايعة للخليفة وفاز بالرتبة الشريفة، وإن توجه اعتراض فلا سبيل إلى القلوب المنعوتة بالأمراض، ولما كان الحق تعالى الإمام الأعلى والمتبع الأولى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]. ولا ينال هذا المقام جسم بعد النبي المصطفى الأعظم ﷺ إلا ختم الأولياء الأطول الأكرم، وإن لم يكن من بيت النبي ﷺ فقد شاركه في النسب العلوي، فهو راجع إلى بيته الأعلى لا إلى بيته الأدنى.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي ﷺ أيضًا في الفتوحات المكية:

منزل مبايعة القطب صاحب الوقت في كل زمان هو من الحضرة المحمدية، إن المبايعة العامة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة، وإن واحد الزمان هو الذي يظهر بالتجليات الإلهية في

الأكوان، هذا علامته في نفسه ليعلم أنه هو، ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه، والظهور به عند الغير فذلك له إذا ولي من ولاه النظر في العالم المعبر عنه بالقطب، وواحد الزمان، والغوث، والخليفة نصب له في حضرة المثال سريرًا أقعده عليه، ينبئ صورة ذلك المكان عن صورة المكانة، كما أنبأ صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته علمًا بكل شيء، فإذا نصب له ذلك السرير خلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه فيظهر بها حللًا وزينةً، متوجًا ميسورًا، مدملجًا لنعمة الزينة علوًا وسفلًا ووسطًا وظاهرًا أو باطنًا، فإذا قعد عليه بالصورة الإلهية، وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره فيدخل في بيعته كل مأمور أعلى وأدنى إلا العالين، وهم المهيمنون العابدون بالذات لا بالأمر.

فمبايعة هذا القطب: هو أن تبايعه نفسه وألّا تخالفه في منشط ولا مكره مما يأمرها به من طاعة الله في أحكامه، فإن الله قد جعل زمام كل نفس بيد صاحبها وأمرها إليه، وكل من عرف القطب من الناس، لزمته مبايعته، وإذا بايعه لزمته بيعته وهي من مبايعة النبات، فإنها بيعة ظاهرة لهذا القطب التحكم في ظاهره بما شاء وعلى الآخر التزام طاعته، وقد ظهر مثل هذا في الشرع الظاهر أن المتنازعين لو اتفقا على حكم بينهما فيما تنازعا فيه، فحكم بينهما بحكم لزمهما الوقوف عند ذلك الحكم وأن لا يخالفا ما حكم به، فالقطب المنصوب من جهة الحق أولى بالحكم فيمن عرف إمامته في الباطن من الناس. فالسعيد: من عرف إمام وقته، فبايعه وحكمه في نفسه وأهله.

ولما كان النبات برزخيًا، كان مرآةً قابلًا لصور ما هو لها برزخ، وهما الحيوان والمعدن إذا بايع بايع لبيعته ما ظهر فيه من صور ما هو

برزخ لهما تابعًا له، فتضمنت بيعة النبات بيعة الحيوان والمعادن، لأن هذا الإمام يشاهد الصور الظاهرة في مرآة البرازخ.

وقال الشيخ سهل بن عبد الله التستري في كتاب >الملامتية والصوفية< و>أهل الفتوة< للدكتور أبي العلا عفيفي: ليس للمؤمن نفس، لأن نفسه ذهبت. قيل له: فأين ذهبت نفسه؟ قال: في المبايعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة 111].

وقال الشيخ أحمد الرفاعي الكبير ﷺ في «البرهان المؤيد»:

بيعة الروح: هي بيعة وعدني بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كرمه أن يأخذ بيد مريديّ ومحبيّ ومن تمسك بي وبذريتي وخلفائي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة عند انقطاع الحيل.

أقسام البيعة:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بذكر عدة أنواع من البيعات يمكن حصرها في قسمين رئيسيين:

القسم الأول: البيعة العامة:

وهي ما عرفت ببيعة الخلافة الإسلامية أو بيعة الحكام، وفيها يبايع المسلمون خليفتهم أو حاكمهم على السمع والطاعة في مقابل أن يحكمهم بما فيه مصلحة الأمة وعلى أساس الكتاب والسنة المطهرة. والطاعة في هذه البيعة واجبة بنص قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾. [النساء: ٥٩].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «كُنَّا نُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَيُلَقِّنُنَا: فِيمَا اسْتَطَعْت». [أبو داود].

القسم الثاني: البيعات الخاصة:

فقد ورد في السنة المطهرة أن حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أمر بعض الصحابة أن يبايعوه على أمور مخصوصة. ومن ذلك:

ـ البيعة على الصلوات الخمس:

فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ وَفَى بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْهُنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يفِ بِهِنَّ اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ». [أبو داود والبيهقي].

ـ البيعة على الصلاة والزكاة:

عن جرير بن عبد الله ﷺ قَالَ: بَايَعْتُ رسولَ الله ﷺ عَلَى إقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ].

ـ البيعة على عدم الشرك:

قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ ﷺ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ ﷺ: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟». وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟». فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ

اللَّهِ؟». قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْس وَتُطِيعُوا». وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً «وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ].

ـ البيعة على القول بالعدل:

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ~ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ‘ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي عُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَمَنْشَطِنَا وَمَكَارِهِنَا، وَعَلَى أَلّا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْعَدْلِ أَيْنَ كُنَّا لا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

ـ البيعة على النصح لكل مسلمٍ:

عَنْ جَرِيرٍ ~ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ‘ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. [حديث متفق عَلَى صحته].

ـ البيعة على عدم الفرار:

عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا ﷺ يَقُولُ: لَمْ نُبَايِعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَوْتِ إِنَّمَا بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلّا نَفِرَّ. [النسائي والترمذي].

ـ البيعة على الموت:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ لِسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ~: عَلَى أَيِّ شَيءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ‘ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ.[البخاري ومسلم].

ـ البيعة على الجهاد:

عَنْ يَعْلَى ~ قَالَ: جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ‘ بِأَبِي يَوْمَ الْفَتْحِ

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايِعْ أَبِي عَلَى الْهِجْرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ‘: >أُبَايِعُهُ عَلَى الْجِهَادِ وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ<.[البخاري ومسلم].

ـ البيعة على الأثرة:

عن يحيى عن أبيه عن جده ~ قال: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ‘ على الأَثَرَةِ عَلَيْنَا. [ابن ماجه].

ـ البيعة على فراق المشرك:

عَنْ جَرِيرٍ ﷺ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَعَلَى فِرَاقِ الْمُشْرِكِ.[البخاري ومسلم].

ـ بيعة النساء والرجال:

عن أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ‘ مَعَ الْبَيْعَةِ، أَلاَّ نَنُوحَ فَمَا وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَمْسُ نِسْوَة: أُمُّ سُلَيْمٍ وَأُمُّ الْعَلاَءِ وَابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ امْرَأَةُ مُعَاذٍ أَوْ ابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ وَامْرَأَةُ مُعَاذٍ. [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ].

وعن عُبَادَةَ بْن الصَّامِتِ ~ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ‘ قَالَ ـ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ـ: >بَايِعُونِي عَلَى أَلّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ. فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِك<. [صحيح البخاري].

ـ البيعة على الإسلام:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلا تُبَايِعُونِي عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ النِّسَاءُ؟ أَلّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ. قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنْ أَصَابَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا فَنَالَتْهُ عُقُوبَةٌ فَهُوَ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ لَمْ تَنَلْهُ عُقُوبَةٌ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». [سنن النسائي].

ـ البيعة على ترك مسألة الناس:

عَنْ عَوْفَ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ ~ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ‘ فَقَالَ: أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ‘؟ فَرَدَّدَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَقَدَّمْنَا أَيْدِيَنَا فَبَايَعْنَاهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ بَايَعْنَاكَ فَعَلامَ؟ قَالَ: عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ< وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً >أَلّا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا<. [سنن أبي داود والنسائي].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ~ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ‘ يَوْمًا: >مَنْ يُبَايِعُ؟<. فَقَالَ ثَوْبَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ‘: عَلامَ نُبَايِعُ؟ قَالَ: >عَلَى أَلّا تَسْأَلُوا أَحَدًا شَيْئًا<. فَبَايَعَهُ ثَوْبَانُ. قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بِمَكَّةَ فِي أَجْمَعَ مَا يَكُونُ النَّاسُ يَسْقُطُ سَوْطُهُ، وَهُوَ رَاكِبٌ، فَرُبَّمَا وَقَعَ عَلَى عَاتِقِ رَجُلٍ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ فَيُنَاوِلُهُ، فَمَا يَأْخُذُهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ فَيَأْخُذَهُ. [رواه الطبراني في الكبير].

ـ البيعة على الطريقة:

عَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟» يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ، فَقُلْنَا: لا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ الْبَابِ وَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ». فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً، ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّهُمَّ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، وَإِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، ثُمَّ قَالَ:

أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ».

والواضح من هذا الحديث عظمة فهم صحابة رسول الله للبيعة وأهميتها، فقد كانوا متحققين من أنها عهدٌ وأمانةٌ وميثاقٌ.

ومضت بيعات الرسول الأعظم ‘ مع صحابته على أمور محددة أخرى، كانت كلها من أمور هذا الدين العظيم.

مما تقدم نستنتج الأمور التالية:

1ـ أن هناك بيعات كثيرة في الإسلام غير بيعة الحكم أو الإمامة العامة.

2ـ تخصصت كل بيعة إسلامية بأمر أو مجموعة أمور تخص الشريعة الإسلامية فقهًا أو تصوفًا.

3ـ كان هناك في بعض البيعات وعدٌ بالمغفرة لقاء الوفاء بها، وهذا أمر مهم جدًا في موضوعنا، فكل مبايع يجب أن يلتزم ببنود البيعة أو المعاهدة الخاصة التي ارتضاها، والتي عاهد عليها في مقابل أن ينال ما وُعد به.

وهكذا ومن ضمن البيعات الإسلامية الكثيرة التي جاء بها النور الأعظم سيدنا محمد ‘ كانت البيعة الخاصة بمفهوم الطريقة الصوفية. ولكل طريقةٍ أسلوبٌ أو منهجٌ شرعيٌّ خاصٌ تنتهجه في تنقية النفوس وعلاج القلوب من أمراضها.

خامسًا: المجاهدة:

الاجتهاد في اللغة: هو بذل ما في وسعه.

قال الراغب الأصفهاني في كتابه >المفردات في غريب القرآن<: الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

وفي اصطلاح القوم:

قال الإمام جعفر الصادق ~: المجاهدة: صدق الافتقار وهو انفصال العبد من نفسه واتصاله بربه.

والمجاهدة: تبري العبد من جميع ما اتصل به.

والمجاهدة: بذل الروح في رضاء الحق.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي: الاجتهاد: هو التحقق بالإسلام.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: الاجتهاد عندنا: بذل الوسع في تحصيل الاستعداد الباطن، الذي به يقبل هذا التنزل الخاص الذي لا يقبله في زمان النبوة والرسالة إلا نبي أو رسول، إلا أنه لا سبيل إلى مخالفة حكم ثابت قد تقرر من الرسول في نفس الأمر، فإن لم يكن ذلك في نفس الأمر فلا يلقى إلى هذا المجتهد الذي ذكرناه إلا ما هو الحكم عليه في نفس الأمر، حتى أنه لو كان رسول الله ' حيًا لحكم به مع أنه قرر حكم المجتهد وإن أخطأ، فما أخطأ المجتهد إلا في الاستعداد، فلو أصاب في الاستعداد ما أخطأ مجتهدٌ أبدًا، بل لا يكون مجتهدًا في الحكم، وإنما هو ناقلٌ ما قبله من الحق النازل عليه في تجليه.

وقال الشيخ أحمد زروق: الاجتهاد: اقتراح الأحكام من أدلتها، دون مبالاة بقائل.

وقال الشيخ علي الخواص: الاجتهاد: وإن كان مبناه على الظن فقد يكون منتهاه إلى علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين.

وقال الشيخ الحارث بن أسد المحاسبي: من اجتهد في باطنه ورثه الله **حسن معاملة ظاهره، ومن حسن معاملة ظاهره مع جهد باطنه، ورثه الله** تعالى الهداية إليه. والمجتهد المطلق: هو الوارث الحقيقي للشارع لكون الشارع أمره أن يعمل بكل ما أدى إليه اجتهاده.

الجهاد في القرآن الكريم:

وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم (42) مرة على **اختلاف** مشتقاتها، منها قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت : 6].

تعريفات الجهاد والمجاهدة:

في الاصطلاح الصوفي:

قال الإمام علي بن أبي طالب كما جاء في نهج البلاغة: «الجهاد في سبيله [الله تعالى]: هو ذروة الإسلام».

وقال: الجهاد: هو باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنَّته الوثيقة.

وقال: المجاهدة أذكارٌ، فيها يكون الانقطاع عن الكل بالاتصال إليه.

قال عبد الله بن المبارك كما جاء في >حقائق التفسير< لأبي عبد الرحمن السلمي: المجاهدة: هي علم آداب الخدمة لا المداومة عليها، وآداب الخدمة أعز من الخدمة.

قال الشيخ أبو عثمان الحيري النيسابوري في المصدر السابق: المجاهدة: هي فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلوب عن الأماني والشبهات، وخلو السر عن النظر إلى الخلق، والرجوع إلى رب السموات.

قال الشيخ ابن عطاء الأدمي في المصدر السابق: المجاهدة: هي صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه.

وقال الإمام القشيري في رسائل في التصوف: المجاهدة: هي بذل المستطاع في أمر المطاع، وهي: ألَّا تدع ميسورًا إلا بذلته، ولا تترك مأمورًا إلا نازلته.

ويقال: هي أن لا تعرج على تقصير، ولا تفرط في مأمور.

ويقال: هي بذل الجد في القصد، وصدق الجهد في العهد.

أو يقال: هي خلع الراحة، وأن يكسر من القلب جماحه.

وقال أبو النجيب السهروردي في >آداب المريدين<: المجاهدة: هي فطم النفس عن مألوفاتها، وحملها على خلاف أهويتها، ومنعها من الشهوات، وأخذها بالمكابدة، وتجرع المرارات، وكثرة الأوراد، واستدامة الصوم والنوافل من الصلاة، مع الندم عن المخالفات.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي في >الفتوحات المكية<: المجاهدة: هي حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى على كل حال، ولكن لا يتمكن له مخالفة الهوى إلا بعد الرياضة، وقال أيضًا: المجاهدة: هي حال الأعمال في وقت. وقال أيضًا: المجاهدة: هي إحساس بالمشقة.

وقال الشريف الجرجاني في التعريفات: الجهاد: هو الدعاء إلى

الدين الحق.

وقال: المجاهدة: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع.

وقال الشيخ علي الكيزواني: المجاهدة: هي شجرة وثمرتها المشاهدة.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في «خمرة الحان ورنَّة الألحان في شرح رسالة الشيخ رسلان»: المجاهدة: هي مكابدة النفس، وحبسها في العبادة الظاهرة والباطنة، الممنون بها من الله تعالى.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة في >معراج التشوف إلى حقائق التصوف«: المجاهدة: هي فطم النفس عن المألوفات، وحملها على مخالفة هواها في عموم الأوقات، وخرق عوائدها في جميع الحالات.

وقال أيضًا: المجاهدة عند الصوفية: أقسى من الرياضة، مغالبة النفس وغلبتها، وحملها على المشاق البدنية، وبذلك يصل المريد إلى الصفاء، وتهذيب النفس، وسلوك دروب الأنبياء، والرسل، والأولياء، لأن علم النفس بالبحث، وعلم الشرع بالدرس، يلزمهما العلم اللدني، وهذا يتم بالرياضة والمجاهدة وحسن التلقي.

وقال أيضًا: لما كانت أحكام الشريعة الإسلامية تنتظم الوجود كله، أي العالم والإنسان، فإنها قد سنّت أحكامًا تناسب العالمين لدحض الباطل بشتى صوره وأشكاله، فكانت **المجاهدة في الإسلام على قسمين:**

الأول: مجاهدة الباطل ـ ممثلًا بالمشركين والكفار ـ في العالم وسميت هذه المجاهدة بالجهاد الأصغر.

الثاني: مجاهدة الباطل ـ ممثلًا بالأهواء والشهوات ـ في داخل الإنسان نفسه، ونعتت هذه المجاهدة بالجهاد الأكبر.

ويجمع قسمي المجاهدة المذكورين ما روي عن حضرة الرسول الأعظم ‘ بعد عودة المسلمين من أحد الغزوات الإسلامية أنه قال: >رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ<. فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ؟ قالَ: >جِهَادُ النَّفْسِ<. [أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر ~].

وإنما خص حضرة الرسول الأعظم ﷺ مجاهدة النفس بوصف الجهاد الأكبر، لأن جهاد الأعداء في العالم له مكان وزمان وظروف معينة، وكلها منقطعة بمعنى أن المعارك فيه لها أجل وتنتهي.

إلا أن مجاهدة النفس ليس لها مكان ولا زمان ولا ظروف معينة ثابتة، بمعنى أن المسلم مطالب دائمًا بكبح جماحها وردعها عن شهواتها وأمانيها الباطلة أو المضلة في كل حين، ولهذا فهو جهاد مستمر متواصل، ولهذا أيضًا سمي بالجهاد الأكبر، ولهذا جاء الأمر بمجاهدة النفس، لأن النفس: هي مضمار الصراع الأول بين المسلم وربه، فهي الرفيق المخادع الذي يجمع الفجور والتقوى، وهي مفتاح الهلاك والنجاة، لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨].

وإذا ما انتصر المسلم على جانب الهوى فيها، وتمكن من الباطل في داخله، صار من اليسير عليه مواجهة الباطل وأهله في العالم.

ولهذا فقد أمر الرسول الأعظم‘ بضرورة مجاهدة النفس بلا هوادة.

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». [سنن الترمذي].

وواضح من هذا الحديث الشريف أن مرتبة المجاهد في سبيل الله مقرونة بمجاهدة النفس أولًا قبل مجاهدة الأعداء في الخارج.

ويستفاد منها أمور:

1ـ من يجاهد نفسه أولًا ثم يجاهد الأعداء ينال مرتبة المجاهد في سبيل الله.

2ـ من يجاهد نفسه ولا تتاح له فرصة محاربة الأعداء ينال مرتبة المجاهدة كاملة.

3ـ من يجاهد الأعداء بلا مجاهدة النفس قد لا ينال هذه المرتبة العظيمة.

ولهذا فقد نبه الإمام علي ﷺ إلى أن أول سبب لترك جهاد الكفار هو ترك جهاد النفس، فقال: أول ما تنكرون من الجهاد، جهاد نفوسكم.

حتى قيل: إن الإمام عليًّا كان له سيفان: سيف يجاهد به نفسه، وسيف يجاهد به الكفار.

وإن الأحكام الشرعية للجهاد الأصغر قد تبناها علماء وفقهاء الأمة الإسلامية؛ وذلك لأنها تقع ضمن دائرة الأعمال الظاهرة في ديننا والتي هي ضمن تخصصهم، ولقد سعوا جاهدين ـ ولا زالوا ـ إلى استنباط الأحكام التي تناسب تطورات الأحداث بما يستند إلى علم أصول الشريعة. وأما الأحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد الأكبر فقد تبناها أهل الاختصاص من العارفين والمشايخ الكاملين (قدس الله أسرارهم أجمعين) وذلك لأنها من أعمال القلوب التي ورثوا علاجها وراثةً روحيةً عن حضرة الرسول الأعظم ‘، فقام كل شيخ مرشد بوضع منهج خاص يؤدي إلى ليّ عنان النفس وترويضها على الطاعات وكسر حدة شهواتها. واصطلح على

هذا المنهج اسم (الرياضة).

وإذا ما سلك المسلم على نهج طريقة صوفية وأخذ من الشيخ المرشد أحكام المجاهدة الباطنة (الرياضات) فإنه سيتأهل لكثير من الأمور الإيمانية، أحدها: الإخلاص في تطبيق أحكام الشريعة المتعلقة بالجهاد الأصغر التي اجتهد العلماء في وضعها.

ولهذا ألزم المشايخ والعارفون (قدس الله أسرارهم) نفوسهم الإقبال على الله تعالى ورسوله ‘، والإعراض عما سواه وأن تكون خطراتهم، وإراداتهم، ونياتهم، وأفعالهم، وأكلهم، وشربهم، ولباسهم، ونومهم، ونطقهم، وصمتهم، ونظرهم، وفكرهم، واستماعهم، واجتماعهم، وافتراقهم، وسائر حركاتهم، وسكناتهم، كلها لله عزّ وجل، وأن يقتصروا على حد الضرورة فيما لابد للنفس منه، وألزموها قلة المنام، وقلة الطعام، وترك الكلام، واعتزال الأنام، والتحلي بالصفات الحميدات، والتخلي عن الصفات الذميمات، وألزموها دوام المراقبة: وهي دوام نظر العبد إلى الله تعالى، وعلمه في كل نَفَس أن الله ناظر إليه ومطلع عليه، واستغراق الأوقات بذكر الله تعالى، ومجانبة الكسل والبطالة وترك الشهوات، حتى أن منهم من أقام أربعين سنة، أو أكثر، أو أقل، يشتهي شهوة ويمنع نفسه منها، ومنهم من أقام في البرية في مكان واحد عدة سنين بارزًا للحر وللبرد والمطر والثلج، وغير ذلك من الشدائد والعناء إلى أن ظفر ببلوغ المنى، فكأن تلك الشدائد ما كانت، ولذات الوصال ما زالت، ولم يزل الشيوخ العارفون بالله تعالى يأمرون المريدين بمباشرة الأشياء التي فيها كسر النفوس بل ذبحها، ولا يزالون يعتادونها حتى يهون عليهم فعلها، بل حتى يعود مرها حلوها، مما يختار بنو الدنيا الموت دونها، وذلك بحسب ما يراه الشيوخ الربانيُّون.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: طوبى لعبدٍ جاهد لله نفسه وهواه، ومن هزم حينئذ هواه ظفر برضا الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع، على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزًا عظيمًا، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع، والظمأ بالنهار، والسهر بالليل. فإن مات صاحبه مات شهيدًا، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإذا رأيت مجتهدًا أبلغ منك في الاجتهاد، فوبخ نفسك ولمها وعيرها تحثيثًا على الازدياد عليه واجعل لها زمامًا من الأمر وعنانًا من النهي، وسقها كالرابض للفأرة التي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلا وقد صحح أولها وآخرها.

وكان رسول الله يصلي حتى تتورم قدماه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ، يُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي اللَّيْلِ، ثُمَّ يَتَرَوَّحُ، فَأَطَالَ حَتَّى رَحِمْتُهُ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: >أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا<. [البخاري ومسلم].

أراد أن تعتبر به أمته، فلا ينبغي للمؤمن أن يغفل عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال، ألا وإنه لو وجد حلاوة عبادة الله، ورأى بركاتها، واستضاء بنورها، لم يصبر عنها ساعةً واحدةً، ولو قُطِّع إربًا إربًا. فما أعرض عنها

من أعرض إلا بحرمان من العصمة والتوفيق.

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني:

لا تشتغل بغسل ثياب بدنك وتذر ثياب قلبك وسخة، اغسل القلب أولًا، ثم اغسل الثياب آخرًا، اجمع بين الغسلين والطهارتين، اغسل ثيابك من الوسخ، واغسل قلبك من الذنوب، ولا تغتر بشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. [هود: ١٠٧]..

والخلاصة: أن المجاهدة أصل من أصول الطريقة، وقد قالوا: من حقق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حرم الوصول.

وقالوا أيضًا: من لم تكن له بداية محرقة بالمجاهدات لم تكن له نهاية مشرقة، والبدايات تدل على النهايات.

وقد روي عن الشيوخ السادات من المجاهدات الشديدة العديد منها، والحكايات الشهيرة التي حكاها العلماء والثقات، ورويت بالأسانيد الصحيحة في كثيرٍ من المصنفات ما يخرج عن الحصر، نذكر منه قطرةً من بحر.

صور من المجاهدات:

وهذه صورة من صور مجاهدات الشيخ عبد القادر الكيلاني ورياضاته في الطريق إلى الله تعالى:

حكي عن الشيخ عبد القادر الكيلاني في مناقبه أنه قال:

مكثت خمسًا وعشرين سنة متجردًا سائحًا في بوادي العراق وخرائبه، وأربعين سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء، وخمس عشرة سنة أصلي العشاء، ثم أستفتح القرآن وأنا واقف على رجلٍ واحدةٍ، ويدي في وتدٍ

مضروبٍ في حائط خوف النوم، حتى أنتهي إلى آخر القرآن عند السحر، وكنت أمكث من الثلاثة أيام إلى الأربعين يومًا ولا أجد ما أقتات به، وكان النوم يأتيني في صورةٍ فأصيح عليه فيذهب، وتأتيني الدنيا وزخارفها وشهواتها في صور حسان وقباح فأصيح عليها فتفر هاربة، وأقمت في البرج المسمى الآن ببرج العجمي إحدى عشرة سنة وبطول إقامتي فيه سمي برج العجمي، وكنت عاهدت الله سبحانه فيه ألّا آكل حتى ألقم، ولا أشرب حتى أسقى، فبقيت فيه أربعين يومًا لا آكل شيئًا، فبعد الأربعين، جاء رجل ومعه خبز وطعام، فوضعه بين يدي ومضى وتركني، فكادت نفسي تقع على الطعام من شدة الجوع، فقلت: والله لا حِلْتُ عما عاهدت ربي تبارك وتعالى.

فسمعت صارخًا من باطني ينادي: الجوع. فلم ارتع له، فاجتازني الشيخ أبو سعيد فسمع الصارخ فدخل علي وقال: ما هذا يا عبد القادر؟ قلت: قلق النفس، وأما الروح فساكنة إلى مولاها عزّ وجل، قال: تعال إليَّ. ومضى وتركني على حالي، فقلت في نفسي: ما أخرج من هذا إلا بأمر. فجاءني أبو العباس الخضر (عليه السلام) وقال: قم وانطلق إلى أبي سعيد. فجئته وإذا هو واقفٌ على باب داره ينتظرني وقال لي: يا عبد القادر ألم يكفك قولي لك تعال إليَّ، حتى أمرك الخضر بما أمرتك به؟ ثم أدخلني داره، فوجدت طعامًا مهيئًا، فجلس يلقمني حتى شبعت، ثم ألبسني الخرقة بيده، ولازمت الاشتغال عليه. وكنت قبل ذلك في سياحاتي، فأتاني شخص ما رأيته قبل.

فقال لي: هل لك في الصحبة؟

قلت: نعم.

قال: بشرط ألا تخالفني.

قلت: نعم.

قال: اجلس هنا حتى آتيك.

وغاب عني سنة، ثم عاد إلي وأنا في مكاني، فجلس عندي ساعة، ثم قام، وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك.

وغاب عني سنة أخرى، ثم جاء وأنا في مكاني، فجلس عندي ساعة ثم قام، وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك.

فغاب عني سنة أخرى، ثم عاد ومعه خبز ولبن، فقال لي: أنا الخضر، وقد أُمرت أن آكل معك فأكلنا، ثم قال: قم فادخل بغداد، فدخلنا جميعًا.

فقيل للشيخ: من أين كنت تقتات في تلك السنين الثلاث؟

قال: من المنبوذات.

قال الحسن القزاز رحمه الله في مجاهدة النفس: ألّا تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغلبة، ولا تتكلم إلا عند الضرورة.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: لن ينال العبد درجة الصالحين حتى يجتاز عقبات ست:

الأولى: يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة.

الثانية: يغلق باب العز ويفتح باب الذل.

الثالثة: يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.

الرابعة: يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

الخامسة: يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.

السادسة: يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

ويجمع عند أئمة الصوفية: أنه لا يفتح على المريد بشيء من ثمرات التصوف أو يكشف له شيء منها بغير لزوم المجاهدة.

قال أبو يزيد البسطامي ﷺ ورحمه الله في المجاهدة: كنت اثنتا عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين مرآة قلبي، وسنة أنظر بينهما (أي بين النفس والقلب) فإذا في وسطي زنارٌ ظاهرٌ، فعملت على قطعه في اثنتي عشرة سنة، ثم نظرت، فإذا في باطني زنار، فعملت على قطعه في خمس سنين، فكشف لي، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات، وهذه هي رحلة المجاهدة للنفس حتى لا يجد العارف اهتمامًا بالخلق والدنيا وما فيها، ويبقى مع الله على الدوام وهذا مقامٌ عالٍ قل أن يوجد بين الناس.

المجاهدة عند الصوفية:

والمجاهدة ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهرة، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾. [الحج: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [التوبة: ٤١].

ولا شك أن النفس الإنسانية قابلةٌ لتغيير صفاتها الناقصة، وتبديل عاداتها المذمومة، وإلا لم يكن هناك فائدةٌ من بعثة الرسول الكريم ﷺ،

ولا ضرورة لمن بعده من ورثته العلماء العاملين، والمرشدين المصلحين. وإذا كان كثير من سباع الطيور والبهائم أمكن ترويضها، وتبديل كثير من صفاتها، فالإنسان الذي كرمه الله تعالى بالعقل، وخلقه في أحسن تقويم من باب أولى.

وليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها، بل المراد تصعيدها من السيئ إلى الحسن، وتسييرها على مراد الله تعالى وابتغاء مرضاته، فصفة الغضب مذمومة حين يغضب المرء لنفسه، أما إذا غضب لله تعالى فعندها يصبح الغضب ممدوحًا، كما كان رسول الله ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله، أو عُطِّلَ حد من حدوده، ولكنه حين أوذي في الله، وضُرب، وأُدمي عقبه، يوم الطائف، لم يغضب لنفسه، بل دعا لمن آذوه بالهداية والتمس العذر. فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ». [البخاري ومسلم].

وكذلك صفة الكبر فهي مذمومة حين يتكبر المسلم على إخوته المسلمين، أما حين يتكبر على المتكبرين الكافرين فتصبح هذه الصفة محمودة، لأنها في سبيل الله وضمن حدود شرعه، وهكذا معظم الصفات المذمومة تحول بالمجاهدة وتصعد إلى صفات ممدوحة، فمجاهدة النفس فَطمُها وحَملها على خلاف هواها المذموم، وإلزامها تطبيق شرع الله تعالى أمرًا ونهيًا.

الأدلة على مشروعية المجاهدة:

من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

حكم المجاهدة:

تزكية النفس فرض عين، ولا تتم إلا بالمجاهدة، ومن هنا كانت المجاهدة فرض عين أيضًا من باب: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

قال الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله: المجاهدة في النفس عبادة، ولا تحصل إلا بالعلم، وهي فرض عين على كل مكلف.

طريقة المجاهدة:

وأول مرحلة في المجاهدة عدم رضى المرء عن نفسه، وإيمانه بوصفها الذي أخبر عنه خالقها ومبدعها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. [يوسف: ٥٣]. وعلمه أن النفس أكبر قاطع عن الله تعالى، كما أنها أعظم موصل إليه وذلك أن النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات، ولكن بعد مجاهدتها وتزكيتها تصبح راضيةً مرضيةً، لا تسر إلا بالطاعات والموافقات، والاستئناس بالله تعالى.

وإذا اكتشف المسلم عيوب نفسه وصدق في طلب تهذيبها، لم يعد عنده الوقت للانشغال بعيوب الناس وإضاعة العمر في تعداد أخطائهم. وإذا رأيت أحدًا من الناس قد صرف وقته في إحصاء أخطاء الآخرين، غافلًا عن عيوب نفسه، فاعلم أنه جاهلٌ ممكورٌ به. قال أبو مدين:

ولا تـر العيـب إلا فيـك معتقـدًا عيبًـا بـدا بينًـا لكنـه اسـتترا

وقال بعضهم:

لا تلـم المـرء علـى فعلـه مـن ذمّ شـيئًا أتـى مثلـه
وهـو منسـوب إلـى مثلـه وإنمـا يـدل علـى جهلـه

وقالوا: لا ترَ عيب غيرك ما دام فيك عيبٌ، والعبد لا يخلو من عيبٍ أبدًا.

فإذا عرف المسلم ذلك أقبل على نفسه يفطمها عن شهواتها المنحرفة وعاداتها الناقصة، ويلزمها بتطبيق الطاعات والقربات.

ويتدرج في المجاهدة على حسب سيره، فهو في بادئ الأمر يتخلى عن المعاصي التي تتعلق بجوارحه السبع وهي:

اللسان، والأذنان، والعينان، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج، ثم يحلي هذه الجوارح السبع بالطاعات المناسبة لكل منها، فهذه الجوارح السبع منافذ على القلب، إما أن تنصب عليه ظلمات المعاصي فتكدره وتمرضه، وإما أن تدخل عليه أنوار الطاعات فتشفيه وتنوره، ثم ينتقل في المجاهدة إلى الصفات الباطنة، فيبدل صفاته الناقصة كالكبر والرياء والغضب بصفات كاملة كالتواضع والإخلاص والحلم.

وبما أن طريق المجاهدة وَعْرُ المسالك متشعب الجوانب، يصعب على السالك أن يلجه منفردًا، كان من المفيد عمليًا صحبة مرشد خبير بعيوب النفس، عالم بطرق معالجتها ومجاهدتها، يستمد المزيد من صحبته خبرةً عمليةً بأساليب تزكية نفسه، كما

يكتسب من روحانيته نفحاتٍ قدسيةً، تدفع المريد إلى تكميل نفسه وشخصيته، وترفعه فوق مستوى النقائص والمنكرات، فقد كان رسول الله ‘ المرشد الأول، والمزكي الأعظم ‘ الذي ربى أصحابه الكرام وزكى نفوسهم بقاله وحاله، كما وصفه الله تعالى بقوله:

{هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. [الجمعة: ٢].

والذي يحقق النفع للمريد هو استقامته على صحبة مرشده واستسلامه له كاستسلام المريض للطبيب. فإذا ما أدخل الشيطان على قلب المريد داء الغرور والاكتفاء الذاتي، فأعجب بنفسه، واستغنى عن ملازمة شيخه باء بالفشل ووقف وهو يظن أنه سائر، وقُطِعَ وهو يظن أنه موصول.

النبي ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم:

1ـ عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [صحيح مسلم].

2ـ وعَنْ عَائِشَةَ عنها قَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ، وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ.

3ـ وعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُهُمْ وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ، قَالَ أُسَامَةُ: وَأَنَا أَشُكُّ عَلَى حَجَرٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنَهُ؟ فَقَالُوا: مِنْ الْجُوعِ، فَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ وَهُوَ زَوْجُ أُمِّ سُلَيْمٍ بِنْتِ مِلْحَانَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ فَسَأَلْتُ

بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: مِنْ الْجُوعِ! فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي، فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَيء؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ عِنْدِي كِسَرٌ مِنْ خُبْزٍ وَتَمَرَاتٌ، فَإِنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحْدَهُ أَشْبَعْنَاهُ وَإِنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ. [صحيح مسلم].

4ـ عِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ~ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ' إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الْجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلا الْجُوعُ. [صحيح البخاري].

5ـ عَنْ فضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلاةِ مِنْ الْخَصَاصَةِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الصّفَّةِ حَتَّى يَقُولَ الأَعْرَابُ: هَؤُلاءِ مَجَانِينُ ـ أَوْ مَجَانُونَ ـ فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ لأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً». [سنن الترمذي].

6ـ عن أَبي هريرة ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِقَومٍ بَيْنَ أيدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ **فَأَبَى أَنْ يأْكُلَ، وقال: خرج رسول الله ' مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ** الشَّعيرِ. [رواه البخاري]. ومعنى مَصْلِيَّةٌ: بفتح الميم: أيْ مَشْوِيَّةٌ.

7ـ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا! فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ **أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ.** وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُم الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ

عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. [صحيح البخاري].

8ـ عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ مَا أَصَابَ النَّاس مِنَ الدُّنْيا فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأ بِهِ بَطْنَهُ. [رواه مسلم].

من أقوال العارفين بالله في أهمية المجاهدة:

1ـ قال الإمام البركوي رحمه الله تعالى: المجاهدة: هي فطم النفس وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، فهي بضاعة العُبَّاد ورأس مال الزهاد، ومدار صلاح النفوس وتذليلها، وملاك تقوية الأرواح وتصفيتها ووصولها إلى حضرة ذي الجلال والإكرام، فعليك أيها السالك بالتشمير في منع النفس عن الهوى، وحملها على المجاهدة إن شئت من الله الهدى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾. [العنكبوت: ٦٩]. وقال عزّ وجل أيضًا: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. [العنكبوت: ٦].

2ـ وقال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: من زين ظاهره بالمجاهدة، حسن الله سرائره بالمشاهدة، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. [العنكبوت: ٦]. واعلم أنه من لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة، لم يجد من هذه الطريقة شمة.

3 ـ وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: من ظن أنه يفتح له بهذه الطريقة، أو يكشف له عن شيءٍ منها من غير لزوم المجاهدة فهو في غلط.

4ـ وقال الإمام الجنيد: سمعت السري السقطي يقول: يا معشر الشباب

جدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت. وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة.

5ـ وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: لا بد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مظهر ومجلاة للنهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادًا في طلب الحق باذلًا نفسه، وفلسه، وروحه، وعزه، وجاهه، ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية، والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصرًا علمنا قصوره عما هنالك.

6ـ وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى في تعليقاته على >الرسالة القشيرية<: إن نجاة النفس أن يخالف العبدُ هواها، ويحملها على ما طلب منها ربها. وإن قال قائل: إن رجال التصوف يحرمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. [الأعراف: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. [المائدة: ٨٧].

فنقول: إن رجال التصوف لم يجعلوا الحلال حرامًا، إذ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله، ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرض عين وأن للنفس أخلاقًا سيئةً وتعلقاتٍ شهوانيةً، تُوصِل صاحبها إلى الردى، وتعيقه عن الترقي في مدارج الكمال، وجدوا لزامًا عليهم أن يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى.

قال الحكيم الترمذي رحمه الله ردًا على هذه الشبهة وجوابًا

لمن احتج بالآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. [الأعراف: ٣٢]: فهذا الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف، لأنا لم نرد بهذا التحريم، ولكنا أردنا تأديب النفس، حتى تأخذ الأدب، وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك، ألا ترى إلى قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. [الأعراف: ٣٣]. فالبغي في الشيءِ الحلالِ حرام، والفخر حرام، والمباهاة حرام، والرياء حرام، والسرف حرام، فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها حتى فسد القلب، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق، تريد بذلك تغنيًا، أو مباهاةً، أو رياءً، علمتُ أنها خلطت حرامًا بحلال، فضيعت الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر، فلما علمت سوء أدبها منعتها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهدًا في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. [العنكبوت: ٦٩]. فصرت عنده بالمجاهدة محسنًا فكان الله معي، ومن كان معه الله فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وقذف في القلب نورًا عاجلًا في دار الدنيا، حتى يوصله إلى ثواب الآجل، وتجافى عن دار الغرور فغاب عن قلبه البغي، والرياء، والسمعة، والمباهاة، والفخر، والخيلاء، والحسد، لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيم الدنيا وحلاوتها في قلبه، وحبه لها، وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس بمنع الشهوات منها.اهـ

وقد تسرع بعض الناس فزعموا جهلًا: أن المجاهدة تنحدر من أصل بوذي، أو إبراهيمي، وتلتقي مع الانحرافات الدينية في

النصرانية وغيرها، التي تعد تعذيب الجسد طريقًا إلى إشراق الروح وانطلاقها، ومنهم من جعل التصوف امتدادًا لنزعة الرهبانية التي ظهرت في ثلاثة رهط سألوا عن عبادة رسول الله ‘ فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثاني: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج. ولما عرض أمرهم على رسول الله ‘ صحح لهم أفكارهم، وردهم إلى الصراط المستقيم والنهج القويم.

والجواب على ذلك أن التصوف لم يكن في يوم من الأيام شرعةً مستقلةً ولا دينًا جديدًا، ولكنه تطبيقٌ عمليٌّ لدين الله تعالى واقتداءٌ كاملٌ برسوله ‘، وإنما سرت الشبهة عند هؤلاء المتسرعين، لأنهم وجدوا في التصوف اهتمامًا بتزكية النفس، وتربيتها، وتصعيدها، ومجاهدتها، على أسسٍ شرعيةٍ ضمن نطاق الدين الحنيف، فقاسوا تلك الانحرافات الدينية على التصوف قياسًا أعمى دون تمحيص أو تمييز، غائبين عن مواقف المجاهدة العظيمة التي مر بها رسول الله ‘ وصحابته الكرام، مما لو سمع به أحد هؤلاء المنكرين ـ ولم يعلم أنه موقف لرسول الله ‘ ـ لاتّهم صاحبه أنه متنطع بالعبادة، وأنه يشاد الدين، ويحرم على نفسه ما أحل الله لها، ولكنه ثمة فرق كبير بين المجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله تعالى وبين المغالاة والانحراف، وتحريم الحلال وتعذيب الجسد كما عليه البوذيون الكافرون.

ومن الظلم والبهتان أن يحكم على كل من جاهد نفسه وزكاها أنه ينحدر من أصل بوذي، أو إبراهيمي، كما يزعم المستشرقون ومن خدع بهم، أو أنه يقتدي بهؤلاء الرهط الذين تقالوا عبادة رسول الله ‘ كما يقوله المتسرعون السطحيون، مع أن رسول الله ‘

صحح لهم خطأهم فرجعوا إلى هديه وسنته.

وإذا وُجِد في تاريخ التصوف من حرَّم الحلال، أو قام بتعذيب الجسد، على غرار الانحرافات الدينية السابقة، فهو مبتدع ومبتعد عن طريق التصوف، لذا ينبغي التفريق بين التصوف والصوفي فليس الصوفي ممثلًا للتصوف، كما أن المسلم بانحرافه لا يمثل الإسلام.

والمعترضون لم يفرقوا بين الصوفي والتصوف، وبين المسلم والإسلام، فجعلوا تلازمًا بينهما، فوقعوا في الكاملين قياسًا على المنحرفين.

وبعد، فإن منتهى آمال السالكين ترقية نفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا إلى مطلبهم، والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة من كونها أمّارة، إلى كونها لوّامة، وملهمة، وراضية، ومرضية، ومطمئنة... إلخ، فالمجاهدة ضروريةٌ للسالك في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى ولا تنتهي إلا بالوصول إلى درجة العصمة، وهذه لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام)، فالأولياء يصلون إلى درجة الحفظ، والأنبياء إلى درجة العصمة.

إذًا فالمجاهدة أصل من أصول طريق الصوفية، وقد قالوا: (من حقَّق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حرم الوصول).

وقال الشيخ أحمد الرفاعي الكبير: الشهادةُ بجهاد النفس إلى أن يميتها عن حظوظها، أكبرُ رتبة عند الله سبحانه وتعالى من الشهادة الموروثة لجهاد الكفار.

قال الإمام علي بن أبي طالب: **الجهاد على أربع شعب:**

على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

وقال الشيخ الحكيم الترمذي: أمر الله ـ تبارك اسمه ـ بالجهاد، فصار الجهاد على ضربين: مجاهدة العدو بالسيف، ومجاهدة الهوى والنفس بسيف ترك المشيئة.

وقال الشيخ إسماعيل حقي البروسوي: ينبغي أن تكون المجاهدة محفوظة عن طرفي التفريط والإفراط، بل يكون على حسب ظلم النفس على القلب باستيلائها عليه، فيما يضره من اشتغالها بمخالفة الشريعة، وموافقة الطبيعة في استيفاء حظوظها وشهواتها من ملاذ الدنيا.

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني: من حرم المجاهدة فلا سبيل له **إلى المشاهدة، فمن أراد الدخول في بحر المشاهدة، فعليه باختيار** المجاهدة، لأن المجاهدة بذرة المشاهدة.

وينبغي أن نعلم أن هناك أنواعًا في المجاهدة التي لا يعول عليها.

قال الشيخ الأكبر ابن عربي: كل مجاهدة لا تكون على يد شيخ لا يعول عليها، وكذلك كل رياضة، والرياضة تحمل الأذى النفسي، والمجاهدة تحمل الأذى البدني.

أشد الجهاد:

يقول مالك بن دينار: أشد الجهاد: جهاد الهوى، من منع نفسه هواها،

فقد استراح من الدنيا وبلاها.

وهناك فرق بين المجاهد لنفسه والمجاهد لربه، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) : من جاهد بنفسه لنفسه وصل إلى كرامة ربه، ومن جاهد بنفسه لربه وصل إلى ربه، وهناك فرق بين مجاهدة الشيطان ومجاهدة الكفار.

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني:

مجاهدة الشيطان باطنة وهي بالقلب والجنان والإيمان، فإذا جاهدته كان مددك الرحمن، ومعتمدك الملك الديان، ورجاؤك رؤية وجه الجليل المنان. وجهاد الكفار جهاد الظاهر بالسيف والرماح، ومددك فيه الملك والأعوان، ورجاؤك فيه دخول الجنان، فإن قتلت في مجاهدة الكفار، كان جزاؤك الخلود في دار البقاء، وإن قتلت في مجاهدة الشيطان ومخالفتك إياه بفناء أجلك واختزام منيتك، كان جزاؤك وجه رب العالمين عند اللقاء، فإن قتلك الكافر كنت شهيداً، وإن قتلك الشيطان بمتابعتك إياه والانقياد لأمره كنت من قرب الملك الجبار طريداً، فجهاد الكفار له نهاية وفناء، وجهاد الشيطان والنفس لا غاية له ولا منتهى.

قال الله جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. يعني: الموت واللقاء.

معنى قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾. [الحج: ٧٨].

قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) :

حق الجهاد: هو ألّا يختار على الله غير الله كما لم يختر عليك غيره.

لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾. [الحج: ٧٨].

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي:

قال بعضهم: حق المجاهدة هو أن تكون حركاته، وسكناته، وقيامه، وقعوده، ومتصرفاته، على حدود ما أمر به خالصًا مخلصًا، لا يكون للنفس فيه حظٌّ بحال.

وقال الإمام القشيري: حق الجهاد هو ما وافق الأمر في القدر، والوقت، والنوع، فإذا حصلت في شيء منه مخالفةٌ فليس حق جهاده.

ويقال: حق الجهاد الأخذ بالأشق، وتقديم الأشق على الأسهل وإن كان في الأخف أيضًا حق.

ويقال: حق الجهاد ألا يفتر العبد عن مجاهدة النفس لحظة.

وقال الشيخ نجم الدين الكبري: تجاهدوا النفوس في تزكيتها بأداء الحقوق وترك الحظوظ، وتجاهدوا القلوب في تصفيتها بقطع تعلقات الكونين ولزوم المراقبات عن الملاحظات، وتجاهدوا الأرواح في تحليها بإفناء الوجود في وجوده، ليبقى بوجوده وجوده.

مجاهدة الاستقامة:

فقال المؤرخ ابن خلدون:

مجاهدة الاستقامة (عند الصوفية): هي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها حتى تتهذب بذلك، وتتحقق به، فتحسن

أخلاقها وتصدر عنها أفعال الخير بسهولة، وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب خلقًا جبلية كأن النفس طبعت عليها. والباعث على هذه المجاهدة طلب الفوز بالدرجات العلى، إذ الاستقامة طريق إليها.

الجهاد الأكبر:

قال الشيخ الأكبر ابن عربي: الجهاد الأكبر هو جهاد هواك، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾. [التوبة: ١٢٣]. ولا أكفر من نفسك فإنها تكفر نعمة الله عليها، وإذا جاهدت نفسك بهذا الجهاد خلص لك الجهاد الأكبر الذي إن قتلت فيه كنت من الأحياء الذين عند ربهم يرزقون. ولا يزال العبد في الجهاد الأكبر، لأنه مجبولٌ على خلاف ما دعاه إليه الحق، فإنه بالأصالة متبعٌ لهواه، الذي هو بمنزلة الإرادة في حق الحقو؟ فيفعل الحق ما يريده ولا يريد الإنسان أن يفعل ما يهوى.

قال الشيخ أحمد السرهندي: الجهاد الأكبر هو الجهاد مع القالب الذي هو مركبٌ من الطبائع المختلفة.

وقال الشيخ علي البندنيجي: الجهاد الأكبر هو الرابطة والقتال مع جيش النفس، لأنه العدو والأخص لما كان مبطونًا في جوف الإنسان، بخلاف الأعداء الخارجية.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة: جهاد البدن هو قطع مواده من تقليل الطعام، والشراب، واللباس، والمنام.

وأضاف الشيخ قائلًا: إن فوائد مجاهدة البدن أنها تظهر الكرامات الحسية.

المجاهدة بالقلب:

وقال الإمام القشيري: المجاهدة بالقلب: هي صونه عن الخواطر الردية: مثل الغفلة، والعزم على المخالفات، وتذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات.

المجاهدة بالمال:

وقال الإمام القشيري: المجاهدة بالمال هي البذل والسخاء، ثم الجود والإيثار.

المجاهدة بالنفس:

وقال الإمام القشيري: المجاهدة بالنفس هي أن لا يدخر العبد ميسورًا إلا بذله في الطاعة بتحمل المشاق، ولا يطلب الرخص والإرفاق.

مجاهدة البواطن:

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة: مجاهدة البواطن هي بنفي الخواطر الرديئة، ودوام الحضور في الحضرة القدسية.

مجاهدة التقوى:

وقال المؤرخ ابن خلدون: مجاهدة التقوى (عند الصوفية): هي الوقوف عند حدود الله لأن الباعث على هذه المجاهدة طلب النجاة، فكأنها اتقاءٌ وتحرزٌ بالوقوف عند حدود الله عن عقوبته، وحصولها في الظاهر، بالنزوع عن المخالفة، والتوبة عنها، وترك ما يؤدي إليها من الجاه، والاستكثار من المال، وفضول العيش، والتعصب للمذاهب، وفي الباطن: بمراقبة أفعال القلب التي هي مصدر الأفعال، ومبدؤها: خوفه أن يلم بمقارفة محظور،

أو إهمال واجب.

المجاهدة عند الكاملين:

وقال الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي:

إن المجاهدات في البدايات، وعند الكمال ينتقل الفعل إلى القلوب وتستريح الجوارح، ويصير البدن مع الكامل كالدابة المطيعة، كلما زاد في علفها زادت في سيرها، وتصير النفس معه في حيز الاعتدال، لا إفراط ولا تفريط، كما هو حاله.

وقد ورد عن الجنيد حكايةٌ تشرح ذلك. قال:

كنت ليلةً في قلقٍ فأردت أن أصلي فلم أقدر، وأردت أن أجلس فلم أقدر، فخرجت من المنزل فرأيت شخصًا ملفوفًا بعباة، فقال: إلى الآن يا أبا القاسم؟

فقلت: من غير موعدٍ يا سيدي.

فقال: بل سألت الله محرك القلوب أن يحرك قلبك.

قلت: فماذا تريد يا سيدي؟

قال: متى يكون داء النفس دواءها؟

قلت: إذا خالفت هواها.

فأقبل على نفسه فقال لها: قد أجبتك سبع مراتٍ بهذا الجواب ولم ترضي حتى وقع لك سماعه من الجنيد.

وفي جواب الجنيد شرح لما تقدم من أن النفس إذا خالفت هواها

في البداية بالمجاهدات، وتركت الشهوات، لم يضرها بعد ذلك شيءٌ من الشهوات، كما كان يأكل اللحم ويحب الحلوى؛ لأن النفس صارت مطيعةً مطمئنةً ولا تتغير.

ونقل عن الشيخ عبد القادر الكيلاني نحوًا من ذلك. وذلك أنه كان له مريد وكان لذلك المريد والدة فغابت مدة وأتت إلى ولدها فوجدته يأكل شعيرًا ولونه مصفرًا، ودخلت على الشيخ فوجدته يأكل دجاجة فصرخت. وقالت له: ولدي يأكل الشعير وأنت تأكل الدجاج. فنظر الشيخ إلى الدجاجة وقال لها: قومي بإذن الله تعالى. فقامت صحيحة سوية. فأقبل على تلك المرأة وقال: إذا صار ولدك إلى هذه الحالة فليأكل ما أراد.

والحاصل أن العارفين انتقلوا من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب التي ذرةٌ منها خيرٌ من أمثال الجبال من عمل الجوارح.

مجاهدة الخواص:

الشيخ أبو الحسن الوراق قال: مجاهدة الخواص هي في تصفية الأحوال.

مجاهدة السرائر:

الشيخ أحمد بن عجيبة وقال: مجاهدة السرائر هي باستدامة الشهود، وعدم الالتفات إلى غير المعبود.

جهاد الشيطان:

الشيخ أحمد بن عجيبة قال: جهاد الشيطان هو الاشتغال بالله والغيبة عنه.

وأضاف الشيخ قائلًا: إن فوائد مجاهدة النفس والشيطان:

أنها تظهر الكرامات الحقيقية، بالكفاية والهداية، والحفظ من الضلال والغواية.

مجاهدة الظاهر:

الشيخ أحمد بن عجيبة قال: مجاهدة الظاهر: هي بدوام الطاعات، وكف المنهيات.

مجاهدة العوام:

قال الشيخ أبو الحسن الوراق: مجاهدة العوام هي في توفية الأعمال.

مجاهدة الكشف والاطلاع:

قول: مجاهدة الكشف والاطلاع (عند الصوفية): هي محو الصفات البشرية، وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة، حتى يحصل له ما يقع به الموت من ذلك أو ما يقرب منه، ثم محاذاة شطر الحق باللطيفة الربانية لينكشف الحجاب، وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان، وهو العلم الإلهامي الذي قدمنا أنه يحصل بالتصفية.

جهاد النفس:

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: جهاد النفس هو الحكم عليها بالعلم في كل حركة، وضربها بالخوف في كل خطرة، وسجنها في قبضة الله أينما كانت.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة: جهاد النفس هو قطع مألوفاتها، وخرق

عوائدها بتحميلها ما تكره، وإبعادها مما تحب، وأعظمها ثلاث: حب الجاه، وحب الدنيا، وحب النساء.

وأضاف الشيخ قائلًا: إن فوائد مجاهدة النفس:

أنها تظهر الكرامات المعنوية، من فهم العلوم، واتساع الفهوم وتحقيق اليقين ونحو ذلك.

مراكز النفس وطريقة مجاهدتها:

قال الشيخ أحمد النقشبندي: إن مراكز النفس أربعة:

ـ مركزٌ للشهوة في المخالفات.

ـ ومركزٌ للشهوة في الطاعات.

ـ ومركزٌ في الميل إلى الراحات.

ـ ومركزٌ في العجز عن أداء المفروضات.

قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. [التوبة: ٥].

قالوا: إذا أردت الجهاد بالنفس: فاحكم عليها بالعلم في كل حركة، واضرب بها بالخوف عند كل خطرة، واسجنها في قبضة الله أينما كنت، واشكِ إلى الله كلما غفلت، فهي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، فإن سخرت لكم في قبضة ما، فجدير أن تذكروا نعمة الله عليكم وتقولوا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. [الزخرف: ١٣].

وقال الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني: كلما جاهدت نفسك

وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة، أحياها الله، ونازعتك، وطلبت منك الشهوات واللذات الجناح منها والمباح، لتعود إلى المجاهدة والمسابقة، ليكتب لك ثوابًا دائمًا، وهو معنى قول النبي ﷺ: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

وقال الشيخ الجنيد البغدادي: مجاهدة النفس:

أولها: الوحشة من النفس وذكرها.

والثاني: الرغبة في الأعمال والطاعات.

والثالث: غلبات ذكر الحق على قلبه عند إمرته عليه.

وقال الشيخ مكارم النهرملكي: المجاهد في الله تعالى هو من تجنب أهل الفترة، وعانق العبرة والفكرة، ولازم الخشوع والأسقام والحسرة، واستعمل الحقيقة، وأمات الهوى، وأحيا الصفا، وسكن عن مجاري القضا، وجانب الأذى، واستحى من الملك الأعلى، ورفض الراحة في الجسد.

أصناف المجاهدين:

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي:

المجاهدون وهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: مجاهدون من غير تقييدٍ بأمر، وهو قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ٩٥].

الصنف الثاني: مجاهدون بتقييدٍ في سبيل الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. [النساء: ٩٥].

الصنف الثالث : المجاهدون فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾. [العنكبوت: ٦٩]. أي: نبين لهم حتى يعلموا فيمن جاهدوا، فيجاهدون عند ذلك أو لا يجاهدون.

الصنف الرابع: المجاهدون في الله حق جهاده، فميزهم عن المجاهدين من غير هذا التقييد، كالذين يتقون الله حق تقاته ويتلون الكتاب حق تلاوته، فهي مرتبةٌ رابعةٌ في الجهاد وهذه المجاهدة من المقامات المستصحبة للتكليف، فما دام التكليف موجودًا كانت المجاهدة قائمة العين.

سادسًا: الرياضات عند أهل التصوف:

الفرق بين الرياضة والمجاهدة:

إن المجاهدة تكون في حمل النفس على الالتزام بما شرعه الله تعالى فعلًا وتركًا، عملًا واجتنابًا، بينما الرياضات تكون في منع النفس مما أباحه الله تعالى لها.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: الرياضة تحمل الأذى النفسي، والمجاهدة تحمل الأذى البدني.

الغاية من الرياضة:

ولما كانت أمراض القلوب أقسى من أمراض الأبدان، لذلك فهي تحتاج إلى بعض الحميات التي تروض النفس على الحضور في الطاعات، فهذه الرياضات ليست من باب تحريم ما أحل الله كما يزعمون، وإنما هي من باب الامتناع الوقتي لكي ترد النفس الأمارة بالسوء إلى حالة الطمأنينة والرضا.

ولذلك إذا قيل: لم تحرمون اللحم في رياضتكم فهذا صيام النصارى؟

أقول: ميزنا شهوات النفس وإلى أيها هي أكثر ميلًا فوجدناها ميالة للحوم الضأن، والطير المشوية، والمطهية، على اختلاف أنواعها، أكثر من ميلها إلى الخبز والفاكهة، فمنع النفس من هذه الملذات ترويضًا لها كي تشعر بلذة الطاعة والمناجاة، وهذا بعيد كل البعد عن دعوى التشبه بالنصارى.

كما أن لتقليل الطعام سواء كان اللحم أم غيره أصل أصيل في شريعتنا الإسلامية كما تقدم ذكره، وليس بعد هذا إلا التلبس المغرض.

وإذا قيل ماذا تبغون من رياضاتكم؟

أقول: هو تهذيب النفس، وكبح جماحها، وإبعادها عن ملذات الدنيا وشهواتها، ونسيان الآخرة حسابها وعقابها.

ألا ترى أهل الدنيا مشغولين بالأكل والشرب والنوم في الليل والنهار، وهمهم جمع الأموال والحفاظ على زخارف الدنيا.

فيا أخي السائل راجع نفسك واسهر وأكثر من ذكر الله ـ عز وجل ـ تَرَ قلبك يبتعد عن الدنيا.

ولا تعود نفسك على الجدل الفارغ فيما ليس لك به علم، فتنكر على أولياء الله نهجهم.

تصفح مسيرتهم لترى جوعهم، وسهرهم، وصمتهم، وشدة حرصهم على عباداتهم، وصقل قلوبهم، وتنويرها بنور الحقيقة والحق.

والرياضة أنواع:

منها: قطع النفس عن علائق الحياة الدنيا خمس مرات في الصلوات.

ومنها: إدامة التركيز على حضور الله في القلب، وهو ما يدعى: بالذكر.

ومنها: إضعاف الجسم بالصوم، لكي يشف ويغدو قادرًا على عكس الأنوار الإلهية.

ومنها: الاعتكاف في الزوايا والتفرغ بالكلية لله الذي إذا شاء تجلى لمريديه.

درجات الرياضة:

هي على ثلاث درجات:

- رياضة المنتسبين: للعامة.
- ورياضة السالكين: للمريدين.
- ورياضة العارفين: للمحققين. تأملهم في مواقف الغايات للمولى.

وقال الشيخ سهل بن عبد الله التستري: جنود السرائر: هم ما يرد من الله تعالى على السرائر، من صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتوله فيه من صحة إيمانه التوكل، وما يزيد فيه بتوكله محبة الله عزّ وجل. فإذا نزلت المحبة في القلب وسكنت فيها طهرها من كل ما سواه، لأن المحبة لا يسكن معها ما يضادها.

وأما المحبة فلها ثلاث منازل:

أولها: استعمال عشر خصال، وتجنب خمس خصال.

فالمستعملة: هي العلم، والحلم، والمكارم، والعفو، والجود،

والخلق، والشكر، والذكر، والإيثار، والورع، ثم قانون هذه كلها الزهد فيما سوى المحبوب مع إيثار طاعة المحبوب.

وأما العشرة التي يتجنبها: فهي الكبر، والهوى، والنفس، والدنيا، والرياء، وأنا، وأنت، ولي، ولك، ثم ملاك ذلك كله: أن ترى البلاء عطاء من الحبيب، مع استعمال الرضا والتسليم للحبيب، ورعاية حال الخدمة والحزن على أيام البطالة.

سابعًا: السفر إلى حضرة علام الغيوب:

قال الشيخ السراج الطوسي: السفر: سمي سفرًا؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، وإنما يسافرون حتى يشاهدوا من أنفسهم خلقًا مذمومًا، فيعملون في تبديله، ويعرفون أيضًا من أنفسهم من المغيبات ما لم يعرفوا ذلك في حضرهم ومعارفهم.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: السفر عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى بالذكر.

وقال الإمام محمد ماضي أبي العزائم: السفر: المراد به سفر القلب في طريق الحقائق، وقد يطلق السفر أيضًا على الترقي في المقامات، وقطع المنازل طلبًا للوصول إلى الله تعالى.

وقال آخر: السفر هو بدء الكشف، وهو رؤيا صالحة تعد العبد لسلوك الطريق.

والسفر: الحج إلى البيت المعمور الكائن في زاوية من الصدر، فهو توجه من العالم إلى الذات، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن التجزؤ إلى الوحدة.

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة: سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب، وهو من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن:

يسافر أولًا: من موطن الذنوب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة.

ويسافر ثانيًا: من موطن الحرص على الدنيا والانكباب عليها، إلى موطن الزهد فيها والغيبة عنها.

ويسافر ثالثًا: من موطن مساوي النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية، منها والتحلية بأضدادها.

ويسافر رابعًا: من عالم الملك إلى شهود عالم الملكوت، ثم إلى شهود الجبروت.

قال الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي:

السفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات.

سفر العارفين بالهمة، وسفر طالب الدنيا بالخطوة، وسفر الزهاد بالطاعة يتقدمون بها ويقطعون المنازل.

لوازم مريد السفر:

وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري:

اللوازم التي لا بد منها لمريد السفر، لاسيما مريد سفر الآخرة عشر:

المقصد: وهو الباعث على السفر.

الدليل: وهو الشيخ.

الزاد: وهو التقوى.

والسلاح: وهو الوضوء.

والسراج: وهو الذكر.

والمطية: وهي الهمة القوية.

والعكاز: وهو العجز.

والحزام: وهو الحزم.

والمنهاج: وهو الشريعة.

والرفقة: وهم إخوان الصدق.

أنواع السفر:

السفر الأول:

قال الشيخ كمال الدين القاشاني: السفر الأول: هو السير إلى الله من منازل النفس للوصول إلى الأفق المبين. وهو نهاية مقام القلب، ومبدأ التجليات الأسمائية.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر الأول: نزول الحق إلى الخلق.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي: السفر الأول: هو السير من الخلق إلى الحق.

وقال آخر: السفر الأول: هو التطهر الكامل، والتشديد على أداء الفروض والنوافل، مع المبالغة في تنفيذ الأوامر.

وعلى المسافر أن يستعين بالصبر لقطع هذه المرحلة من السفر التي هي أشق المراحل. فلا ليل المسافر ليل ولا نهاره نهار. إنه أسير الوقت، قد وجد نفسه على مشارف صحراء السلوك القاسية، وليس له من رفيق إلا وحيه وضميره.

السفر الثاني:

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: السفر الثاني: هو من حيث الباطن والروح وتثميرها للتحقق بالاسم الباطن بجميع الأسماء المنبئة عن التنزيه، كالسلام والقدوس والعزيز ونحو ذلك. لرؤية الكثرة في عين الوحدة، وذلك إنما يكون، بفتق الروح، وإخراج أحكام الكثرة الكامنة في باطنها.

وقال الشيخ كمال الدين القاشاني: السفر الثاني: هو عبارة عن أخذ **الإنسان في التوجه من ظاهر الوجود إلى باطنه بنفي كل عائق وقطع كل علائق.**

وقال أيضًا: السفر الثاني: هو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية الحضرة الواحدية.

وقال الشريف الجرجاني: السفر الثاني: وهو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنة.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر الثاني: هو صعود الخلق إلى الحق من الخلق، ويسمى: السفر إلى الله تبارك وتعالى.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي: السفر الثاني: وهو السير من الحق إلى

الحق.

السفر الثاني: هو بدء الاطلاع على عوالم الملكوت بعد أن يكون المسافر قد أدى ما عليه من التزامات، وعاد في طهارته كالطفل الذي ولدته أمه. إن آخر نقطة من نقاط السفر الأول، وهو السجود الكلي، وهو أول نقطة من السفر الثاني، وفيه تنشق ذات السالك المسافر لتطل منها على أرواح الملأ الأعلى. ويرى المسافر في بدء هذه المرحلة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

نهاية السفر الثاني:

وقال الشيخ كمال الدين القاشاني: نهاية السفر الثاني: هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنية.

السفر الثالث:

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: السفر الثالث: هو لأجل التحقق بالتجلي الذاتي الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر، الحاصل والمتعين من ظاهر مرتبة الألوهية. وذلك: ببذل الجد والجهد في إزالة قيد التقيد لأحد حكمي الظاهر والباطن، ونفي تمانع آثارهما حتى يتولد من بين أحكامهما قلبٌ متبحرٌ لا يتقيد ولا يقيد، بل يجمع بين طرفي الظاهر والباطن، وذلك هو المعبر عنه بمقام: قاب قوسين، وجمع الجمع، ويتجلى فيه التجلي الجمعي الكمالي. وهذا هو منتهى أسفار جميع الأنبياء والرسل والمقربين من الأولين والآخرين.

وقال الشيخ كمال الدين القاشاني: السفر الثالث: هو عبارة عن أخذ

الإنسان في التوجه عن التقيد بالضدين الظاهري والباطني، إلى حضرة جمع الجمع بين الظاهرية والباطنية والأولية والآخرية.

وقال أيضًا: السفر الثالث: هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية. وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينية، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية.

وقال الشريف الجرجاني: السفر الثالث: وهو زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن، بالحصول في أحدية عين الجمع.

وقال عبد الكريم الجيلي: السفر الثالث: هو الصعود.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي: السفر الثالث: وهو السير من الحق إلى الخلق.

وقال آخر: السفر الثالث: وهو الارتداد من عالم الملكوت إلى عالم الشهادة، وبدء المزج بين عالميهما معًا. فبعد العروج إلى السماوات السبع الطباق في ذات العارف يهبط إلى أرض البدن التي لم يفارقها. فالرحلة وجدانية ذوقية، ومع ذلك فإن لها كل أحاسيس السفر العادي.

نهاية السفر الثالث:

قال الشيخ كمال الدين القاشاني: نهاية السفر الثالث: هو زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن، بالحصول في أحدية عين الجمع.

السفر الرابع:

قال الشيخ الأكبر ابن عربي: السفر الرابع: هو إلى مقام ـ أو أدنى ـ ورتبة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. [النجم: ٤٢].

ومرتبته: أحدية الجمع للتحقق بالتجلي الرباني الأكملي، المتعين من باطن مرتبة الألوهية، فذلك مختص بسيدنا ومولانا خاتم النبيين.

وقال الشيخ كمال الدين القاشاني: السفر الرابع: هو التوجه من حضرة جمع الجمع ومقام قاب قوسين، الذي هو مقام الكمال إلى حضرة الأكملية ومقام (أو أدنى).

وقال أيضًا: السفر الرابع: هو السير بالله عن الله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء، والفرق بعد الجمع.

وقال الشريف الجرجاني: السفر الرابع: هو عند الرجوع عن الحق إلى الخلق، وهو أحدية الجمع، والفرق بشهود اندراج الحق في الخلق، واضمحلال الخلق في الحق، حتى يرى العين الوحدة في صورة الكثرة، وصورة الكثرة في عين الوحدة.

وقال أيضًا: السفر الرابع: هو سفر الخلق في الحق بالحق.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي: السفر الرابع: هو السير من الخلق إلى الخلق.

وقال الشيخ محمود أبو الشامات: السفر الرابع من أسفار العارفين: هو سفر الخلق إلى الخلق، بالمعرفة الكاملة والحقيقة الشاملة، وهو **النزول بظهور الآثار، وانصباغها بوجود الواحد القهار، وهو نهاية** الأسفار. فهو لواحد الزمان، وفرد الأوان، إنسان عين الأعيان، خليفة الرحمن، في عالم الإمكان، محمدي الوقت.

وأضاف الشيخ قائلًا: وهذا معنى قولهم: النهايات رجوع للبدايات.

ولا يفهم هذا السفر على ما هو عليه إلا الورثة المحمديون أصحاب الإرشاد.

قلت: السفر الرابع: هو رفع الستار عن السر. فمن مركز الدائرة تنطلق كل أوامر الجبروت، وهنا يتم التوحيد. ودخولُ المسافر إلى هذا المقام دخولُ ذلٍّ، إذ عن طريق تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من وحيه بالرمز، والإشارة، والمكالمة، والمشافهة، يرى المسافر رأي العين حقيقة أن لا حركةً ولا سكونًا إلا بأمر الله، وأنه القاهر فوق الأفق الأعلى الذي ما بعده أفق. وهنا تتم العبودية لله حيث يجد المسافر نفسه عاريًا من كل ما قد نسبه إلى نفسه من قبل في مراحل سفره، فلا سفره، ولا جهاده لنفسه، ولا صفاته، ولا فعله، ليس هذا كله قد تم إلا بإذن الله وعونه وعنايته وتوفيقه.

نهاية السفر الرابع:

قال الشيخ كمال الدين القاشاني: نهاية السفر الرابع: عند الرجوع عن الحق إلى الخلق في مقام الاستقامة: هو أحدية الجمع والفرق، بشهود اندراج الحق في الخلق، واضمحلال الخلق في الحق حتى يرى العين الوحدة في صور الكثرة، وصور الكثرة في عين الوحدة.

السفر الخامس:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر الخامس: هو سفر الخلق من الحق بالحق إلى الحق.

السفر السادس:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر السادس: هو سفر العبد من

الحرية إلى العبودية في العبودية.

سفر إبراهيم عليه السلام:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: سفر إبراهيم الخليل (عليه السلام) هو «سفر الهداية»: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. [الصافات: ٩٩].

السفر إلى الله تعالى:

قال الشيخ أحمد بن عجيبة: السفر إلى الله مجاز، وهو عبارة عن قطع العلائق، وعن الخروج عن الشهوات والعوائد ليتصل بالأنوار والحقائق، وهي المعبر عنها بـ «بحضرة الحق».

وإن شئت قلت: السفر هنا عبارة عن الانتقال عن المقامات والإنزال في أخرى.

السفر الأصلي:

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر الأصلي: هو واحدٌ كليٌّ، لا يستطيل، بل دوري، وهو السفر من الحق إلى الحق، من الله الابتداء وإلى ربكم المنتهى.

سفر الإقبال:

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي: سفر الإقبال وعدم الالتفات وهو سفر لوط إلى إبراهيم الخليل عليهما السلام... وجعل له السري، لأنه سفر في الغيب، إذ لفظ السري لا يطلق إلا على سير الليل ففي الاعتبار لا في التفسير، قيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾. [هود: ٨١]. أي: بجميع ذاتك فتشاهد الحقائق كلها.

السفر الباطني:

قال الشيخ محمد المكي: السفر الباطني هو السير والسلوك إلى الله تعالى.

سفر الخلق والأمر:

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي: سفر الخلق والأمر: وهو سفر الإبداع، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾. [فصلت: ١١ – ١٢]. فلما قضاهنّ سبع سماوات في يومين أوحى في كل سماء أمرها، فأودع فيها جميع ما يحتاج إليه المولدات من الأمور في تركيبها، وتحليلها، وتبديلها، وتغييرها، وانتقالها، من حال إلى حال بالأدوار والأطوار، وهذا من الأمر الإلهي المودع في السماوات. فبرز بالتحريكات الفلكية، ليظهر التكوين في الأركان بحسب الأمر الذي يكون في تلك الحركة وفي ذلك الفلك.

سفر الطالبين:

قال الشيخ أحمد النقشبندي: سفر الطالبين: هو الظفر بنفوسهم، فإذا ظفروا بها فقد وصلوا. يريدون بذلك: زوال أحكام البشرية عنهم، واستيلاء سلطان الحقيقة عليهم.

السفر المعنوي:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: السفر المعنوي: هو عبارة عن العلوم المتعارضة، مثل علم الوحدة، والكثرة، والجمع، والتفرقة، وكذلك (الأهوية) أيضًا فإنها (مختلفة التصريف)، وهي

في هذا السفر: عبارة عن النفحات المتعارضة مثل نفحات الجلال والجمال والكمال.

سفر المكر والابتلاء:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي سفر المكر والابتلاء: هو سفر يعقوب ويوسف (عليهما السلام)، وهو سفر الابتلاء بالرق تحت القهر الإلهي لمن كمل فيه العز والراحة والحسن.

سفر الميقات الإلهي:

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي سفر الميقات الإلهي: وهو سفر موسى (عليه السلام)، فإن وعد السيد عبده بمحادثته أو مجالسته، ثار الشوق الكامن بين ضلوعه وحن إلى وعد ربه، لكن لا يدري متى يفجؤه الوعد لكونه غير مربوط بحد وأجل

السفر في الوطن:

قال الشيخ أحمد السرهندي: السفر في الوطن: هو عبارة عن السير الأنفسي.

سفير الحق إلى الخلق:

قال ابن عربي: سفير الحق إلى الخلق: هو الأخص (جبرائيل)، من حيث إنه يسفر بالوحي إلى الخلق، ويجلي مراد الحق لهم. وبصورة عامة فإن الملائكة هم سفراء الحق ينزلون إلى الأرض بمصالح العالم.

المسافر:

قال الشيخ الأكبر ابن عربي: المسافر: هو الذي سافر بفكره في

المعقولات وهو الاعتبار، فعبر من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى.

وقال ابن سبعين: هو سالك الطريق العملي للتحقق بالمثل الأخلاقية العليا.

احتياجات المسافر:

قال الشيخ عبد الله اليافعي: قال بعضهم: يحتاج المسافر من سفره ـ أو قال: السالك في سلوكه ـ إلى أربعة أشياء: علم يسوسه، وذِكْرٌ يؤنسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله. قلت: ومن حصل له ما قاله الأول من تولى رعاية الحق لا يحتاج إلى هذه الأربعة المذكورة، لأنه حينئذ يكون معلمًا ومؤنسًا ومحفوظًا ومحمولًا.

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي: المسافرون من التجار الذين أمرهم الله بالزاد الذي لا يفضل عنهم بعد انقضاء سفرهم منه شيء، بل يكون على قدر المسافة، **فهم على ثلاثة أصناف:**

صنف منهم يسافر برًا، وآخر يسافر برًا وبحرًا بحسب طريقه:

فمسافر البحر بين عدوّين نفسه والطريق وما فيه.

ومسافر البر ذو عدوٍّ واحدٍ.

والجامع بينهما في سفره ذو ثلاثة أعداء.

فمسافر البحر: أهل النظر في المعقولات، ومن النظر في المعقولات النظر في المشروعات، فهو بين عدو الشبهة: وهو عين البحر، وبين عدو

التأويل: وهو العدو الذي يقطع في البحر.

ومسافر البر: هم المقتصرون على الشرع خاصة، وهم أهل الظاهر.

والمسافر الجامع بين البر والبحر: هم أهل الله المحققون من الصوفية أصحاب الجمع والوجود والشهود.

وأعداؤهم ثلاثة: عدو برهم صور التجلي، وعدو بحرهم قصورهم على ما تجلى لهم، أو تأويل ما تجلى لهم لا بد من ذلك.

** ** **

شرح قصيدة ابن الميلق لابن علان
والتي مطلعها

مــن ذاقَ طعــمَ شــراب القــوم ومن دَرَاه غدا بـالروح يشريه يدريـــــــــــــــــــــــــــه

قال ابن الميلق رحمه الله تعالى:

مــن ذاقَ طعــمَ شــرابِ القــومِ ومن دَرَاه غدا بـالروح يَشْريهِ يَدْريـــــــــــــــــــــــــــهِ

أي من تحلى بأخلاق القوم، وسار بسيرتهم بإصلاح ظاهره وباطنه، بأن جعل ظاهره موافقًا للشريعة، وباطنه متمسكًا بالطريقة، أشرقت عليه حينئذ أنوار الحقيقة، وصارت مقامات القوم وأحوالهم له غذاءً يذوق طعمه، وشرابًا يروي غليله، ودواءً يشفي علته. فإذا ذاق طعم شراب القوم على هذا الوصف ورآه، أقبل عليه بكليته وشراه بروحه، كما قال بعضهم:

لو أن روحي في كفي وجُدْتُ بها على البشـــير بكـم يـا مَرْهَمَ العللِ
مـا إن وفيـتُ بـبعضٍ مـن حقـوقكم وصرتُ في عدمِ الإنصافِ في خَجَلِ

ولو تعوّضَ أرواحًـا وجـادَ بهـا فـي كلِّ طَرْفـةِ عَيْنٍ لا يُسَـاويه

أي: ولو تعوض ذلك الباذل روحه في شراب القوم، أرواحًا وجاد بتلك الأرواح التي تعوضها في كل لحظة، أي لا يزال يجود بأرواحه في كل حين، ويبذلها في ثمن ذلك الشراب لا يساويه، أي لا يساوي ما يبذله ما يطلبه.

ما يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وكيف يساوي ما يبذله ما يطلبه، وهو يطلب الغاية التي هي منتهى الغايات، ومُنية العارفين التي قصرت عنها العبارات والإشارات، كما قال في الحكم: ليس العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده.

وَقَطْرَةٌ منهُ تَكْفِي الخَلْقَ لو فَيَشْطَحُونَ على الأَكْوَانِ بالتِّيهِ طَعِمُوا

أي قطرة من شراب الحقيقة لو شربها الخلق أجمعهم؛ لكفتهم وأسكرتهم وأخرجتهم عن وجودهم الوهمي إلى الوجود الحقيقي، وأشرقت فيهم الأنوار الإلٰهية، واضمحلت الظلمة الجسمانية، فيشطحون على الأكوان تائهين مستغرقين فيما غمرهم به مولاهم من بحار الإحسان، وكل عبارة أشكل معناها صدرت عنهم في هذا المقام، فإن هذا المقام يذهب فيه التمييز لسطوع شمس الحقيقة، وتذهب نجوم الفرق فيه عن شهود أهل الطريقة، كما قال بعض العارفين:

لو عاينتْ عيناكَ يوم تزلزلتْ أرضُ النُّفُوسِ ودُكَّتِ الجبال
لرأيتَ شمسَ الحقِّ يسطعُ نورُها يومَ التزلزلِ والرجالُ رجالُ

وهذا مقام الجمع وصاحبه لا يشهد فيه إلا الحق، ويفنى بالحق عن الخلق حتى يفنى عن نفسه، وأكمل منه أن يرجع إلى الفرق بعد الجمع، وهذا مقام البقاء، وأهل التمكين، والإرشاد، ومقام الأنبياء، ووارثيهم، ولهذا قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه أيضًا: خضت بحرًا وقف الأنبياء على

ساحله. يعني وصلت لجة البحر ولم أصل إلى كمال الأنبياء البالغين إلى الفرق بعد الجمع، فمقصوده بذلك ﷺ انحطاط رتبته عن رتبتهم، خلاف ما يفهمه العموم من عبارته، وهذا هو اللائق بحال أبي يزيد ﷺ كما علم من تعظيمه لمقام الأنبياء في كثير من كلامه لا نطول بذكره.

وذو الصَّبابةِ لو يُسْقَى على عَدَدِ أَنْفَاسِ والكونُ كأسًا لَيْسَ يَرْوِيهِ ال

أي المحب المستغرق لو يسقى كؤوسًا على عدد الأنفاس، والكون كله كأس من كؤوسه، رضًا وتقديرًا، ليس يرويه ما شربه كما قال بعضهم:

شربتُ الحُبَّ كأسًا بعد كأسٍ فما نفِدَ الشرابُ وما رويتُ
عجبتُ لمن يقول: ذكرت ربي وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا رأيتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

وقال بعضهم:

لو شربت في كل لحظة ألف بحر لا ترى ذلك إلا قليلًا

واشهد شفتيك ناشفة، وكل ذلك كناية عن عدم النهاية وأن المقصود غير منضبط بالعبارة، وإنما المقصود منها التقريب والإشارة، وهذا أمر لا يسعه الإيمان حتى يمنّ الله على السالك بمقام الإحسان، فلهذا قال الجنيد ﷺ: التصديق بطريقنا هذه ولاية صغرى.

يَرْوَى ويَظْمَأُ لا ينفكُّ شاربُهُ يَصْحُو ويَسْكَرُ والمحبوبُ يَسْقِيهِ

أي لا ينفك شارب شراب القوم يروى ويظمأ، لأنه كلما

رويَ ازداد ظمأً (منهومان لا يشبعان: طالب العلم وطالب الدنيا). فإذا كان طالب العلم وطالب الدنيا لا يشبعان فكيف يشبع طالب الحق ويروى ومطلبه لا يتناهى؟

قال عين القضاة الهمداني ـ وكان قد حصَّل العلوم ـ: فما وجدت قلبي إلا متفرقًا، فأقبلت إلى كتب الإمام محمد الغزالي أربع سنين، حتى ضبطتها وفهمتها وظننت أني قد حصلت المقصود، فوفد علينا الإمام محمد الغزالي، فلازمته عشرين يومًا، فأشرقت عليّ أحوالٌ، وظهرت أمورٌ لو أني بقيت في طلبها ألف عام ما انتهى ذلك الطلب. وكيف لا يكون كذلك ومطلب القوم ذات الحق سبحانه وتعالى، لا يعرجون على اسم ولا على صفة، بل لو قاموا في طلبهم أبد الآباد يرون أنفسهم في أول قدم، كما قال بعض العارفين: كل شيء رُئي أو سُمع أو عُلم فهو غير ولا يتجلى لهم بذاته إلا في حجاب صفاته، فكلما أقبلوا على ذاته تعالى ترقوا إلى مقاماتٍ وأحوالٍ وانكشافاتٍ وأذواقٍ، وكلها ترجع إلى الأسماء والصفات.

وأما الذات فإدراكها العجز عن إدراكها، كما قال الصديق رضي الله عنه: العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراك. فكلما لاح للعارف منهلٌ ظمئ وازداد شوقًا إلى منهلٍ آخر، وهكذا حتى قال السهروردي في عوارفه: إن أهل الجنة في الجنة لا يزالون أبد الآباد في الترقي لعدم انتهاء مطلوبهم، ومن هنا تفهم معنى قوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». [صحيح مسلم].

إشارة إلى ترقياته ﷺ في كل وقت، فكلما جاوز مقامًا رأى ذلك السابق ذنبًا بالنسبة إلى المقام اللاحق فيستغفر منه، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن كان هذا شأنه من العلماء الوارثة كان كلما روي

من المقامات والأحوال ظمئ وازداد شوقًا إلى ما فوقه. وإلى هذا المعنى أشار الجنيد ﷺ حيث قال: لو أقبل عارفٌ على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أعظم. لأن العارف لا يزال كلما روى ظمأه من توجهاته لمولاه ظمئ، وكلما ظمئ روي، وهكذا لا ينفك حاله عن هذا الترقي، وما أحسن ما قال ابن الفارض في هذا المعنى:

لي حسن في كل شيء تجلّى بي تملا فقلت: قصدي وراكا

وقال بعضهم:

ولا تلتفت في السير غيرًا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
فمهما ترى كل المقامات تتجلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذلك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

قوله: (يصحو ويسكر والمحبوب يسقيه) أي تارة يسكر السالك بالشراب الذي شربه فتظهر عليه أوصاف أهل السكر من الشطحات، وغيرها من حركات أهل الجذبات، وتارة يرجع إلى صحوه وكماله وفرقه بعد جمعه، **وهو شأن أهل الكمال، فالكامل من لا يحجبه فرقه عن جمعه، ولا جمعه** عن فرقه، ولا سكره عن صحوه، ولا صحوه عن سكره، فظاهره للفرق، وباطنه للجمع.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: كان لي صاحب كثيرًا ما يأتيني بالتوحيد فقلت له: إن أردت التي لا لائمة فيها فليكن الفرق بلسانك موجودًا، والجمع بقلبك مشهودًا.

وقال في الحكم: متى جعلك في الظاهر ممتثلًا لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم عليك المنة. وهذا هو شأن أرباب الكمال ظاهرهم مع الخلق، وباطنهم مع الحق: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. وكانت رابعة العدوية كثيرًا ما تنشد:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وما أحسن ما قال بعضهم في هذا المعنى:

ومن داخل كن صاحبًا غير غافل ومن خارج خالط كبعض الأجانب

في رِيِّهِ ظمأٌ والصَّحْو يُسْكِرُهُ والوَجْدُ يُظْهِرُهُ طَوْرًا ويُخْفيهِ

أي في الشارب من شراب القوم ظمأ، أي اشتياق واستشراف إلى منهلٍ أعلى من منهلٍ، فلا يزال يترقى من منهلٍ إلى منهلٍ، ومن منزلٍ إلى منزلٍ، لا يلتفت إلى حالٍ، ولا إلى مقامٍ، ولا إلى كشفٍ، ولا إلى أنوارٍ، فإن هذه كلها حجاب، إذا التفت إليها السالك، وسكن إليها، فهو فيها بائن، وعنها كما قيل: العارف كائن بائن.

والحاصل أن الحجاب على قسمين:

حجاب ظلماني، وحجاب نوراني. فالحجاب الظلماني واضح، والحجاب النوراني هو: المقامات، والأحوال، والمكاشفات، والسالك كلما وصل إليها لا يلتفت لها، ولا يسكن إليها، بل كلما وصل مقامًا ازداد ظمأً لمقام

بعده، وهكذا لا يزال يرتوي ويظمأ أبد الآباد كما تقدم، قوله (والصحو يسكره) أي: الصحو يسكر السالك المتمكن؛ لأن السكر عبارة عن امتلاء الباطن من شراب المحبة، والمتمكن يشرب ولا يزداد بشربه إلا صحوًا، كالمدمن الشراب المجاري لا يتغير حاله، وإن شرب دنا بخلاف المبتدئ للشرب لو شرب كأسًا أثر فيه وغيّر حاله، فبهذا يقال: إن أرباب الأحوال يظهرون وكل واحد يعرفهم لتغير أحوالهم، وأما المتمكن فلا يعرفه إلا الناقد البصير لعدم تغير حاله، ولهذا كان الجنيد ﷺ يتأثر عند السماع في ابتدائه، وفي انتهائه لم يظهر عليه تغير، فسئل عن ذلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾. [النمل: ٨٨]. وإلى هذا المعنى أشار الصديق ﷺ لما رأى إنسانًا يبكي عند قراءته: كذلك كنا حتى قست قلوبنا، فعبر عن حال كماله بقساوة القلب سترًا للحال وتواضعًا، فرضي الله عنه ما أعرفه بآداب الكلام!

قوله: (والوجد يظهره طورًا ويخفيه) أي: الوجد يظهر السالك ويبدي أحواله، إذا أشرق بتجلي الصفات فإن الظهور بها يكون، ويخفيه أي الوجد طورًا آخر، إذا أشرق بتجلي الذات، إذ ليس في تجلي الذات إلا الفناء المحض حتى لا يبقى اسم ولا رسم.

يَبْدُو لَهُ السُّر مِنْ آفاقِ وِجْهَتِهِ ولَـيْسَ إلا لَـهُ مِنْـهُ تَبَدِّيـهِ

أي تبدو للسالك الشارب من شراب القوم الأسرار والأذواق والأحوال، من وجهته أي من قبلته ومقصده، وهو الوجود المطلق تعالى عن كل قيد حتى عن الأطواق، فإن السالك الصادق لا قبلة له ولا مقصد له إلا ذاته تعالى، ومن صحح مقصده أشرقت عليه الأنوار، وظهرت على لسانه المعارف،

وصفا قلبه وروحه، وتجلى له سره، وظهرت له أمورٌ يكلّ عنها لسانه، **ويغرق فيها جنانه، وأصل ذلك تصحيح المقصد بالإقبال على المولى، والإعراض عن السوى.**

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﵁: عليك بورودٍ واحدٍ: محبة المولى، ومخالفة الهوى.

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني ﵁: وأفضل الأعمال مخالفة النفس والهوى، ودوام التوجه إلى الله تعالى، والإعراض عن السوى.

وقال الشيخ رسلان: ما صلحتَ لنا ما دام فيك بقية لسوانا، وإذا **حولت السوى أفنيناك عنك، وصلحت لنا، وأودعناك سرنا. وقال في** الحكم: كيف يشرق قلبٌ صور الأكوان منطبعةٌ في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبلٌ بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟.

وقال أيضًا فيها: فرّغ قلبك من الأغيار نملأه بالمعارف والأسرار، أنوارٌ أذن لها في الوصول، وأنوارٌ أذن لها في الدخول، فلما وردت عليك الأنوار، ووجدت القلب محشوًا بصور الآثار، ارتحلت من حيث نزلت. وقال أيضًا: كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، والعمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه، وأصل ذلك كله قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١]. قال الشيخ أبو مدين: شتان بين من همته الحور والقصور ومن همته رفع الستور، وهذا

كله تحويم وإشارة إلى معنى لا إله إلا الله تعالى، فإن حاصله يرجع إلى نفي السوى، والإقبال على المولى.

ولهذا قيل: **الطرق ثلاثة:**

طريقة الصالحين، وطريقة الزاهدين، وطريقة العارفين.

فطريقة الصالحين: كثرة الأعمال والأوراد.

وطريقة الزاهدين: الزهد في الدنيا.

وطريقة العارفين: طريق لا إله إلا الله وهي الخروج عن السوى والإقبال على المولى، ولهذا ورد في الحديث: أفضل الذكر لا إله إلا الله، وورد من قال: لا إله إلا الله مخلصًا بها من قلبه دخل الجنة، وسُئل ﷺ: ما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزك عن المحارم». ومعلوم أنها لا تحجز عن المحارم حتى تشرق أنوارها في القلب، ويذهب السوى، حتى لا يزال العبد مراقبًا للرب، كما قال بعضهم:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوتُ ولكن قل: عليَّ رقيب

قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: الحق تعالى مطلع على السرائر والظواهر في كل نفس وحال، فأينما رآه مؤثرًا له حفظه من طوارق المحن ومضلات الفتن، وقال أيضًا: من سكن سره إلى غير الله نزع الله الرحمة من قلبه، وألبسه لباس الطمع فيهم، انتهى. فلا تتعدَّ نية همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، لا ترفعَنَّ لغيره حاجةً هو موردها عليك، وكيف يرفع غيره ما كان له واضعًا، من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه! فكيف

يستطيع أن يكون لها من غيره رافعًا؟ قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أيست من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا آيس من نفع غيري لنفسي؟ ورجوت الله لغيري، فكيف لا أرجوه لنفسي؟

فلا تعتمد يا أخي في ظاهرك وباطنك إلا عليه، ولا تعول في سائر أمورك إلا على فضله، وانطراحك بين يديه، كما أرشدك إلى ذلك سبحانه في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾.[المزمل: ٨]. أي انقطع إليه كليًا بظاهرك وباطنك، في رزق قلبك ورزق قالبك، فإن جاءتك الوساوس من أمر الرزق، وشوشت عليك قالبك، فاتلُ على نفسك تمام الآية: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وقل لها: يا نفسي هذا مولاكِ قد أشار عليكِ بالدواء النافع، وبيَّن لكِ أن المشرق والمغرب له، فلا تهتمي بأمر الرزق وأنتِ متوجهةٌ إليه. قال يحيى بن معاذ: من فرّ إلى الله ثم اتهمه في الرزق فقد فرّ منه لا إليه، ومع ذلك ما اكتفى بذلك سبحانه حتى قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. أي لا ضار، ولا نافع، ولا معطي، ولا مانع، إلا هو. فكيف تلتفتين إلى سواه والمشرق والمغرب له؟! والضار، والنافع، والمعطي، والمانع هو لا سواه؟! ومع ذلك ما اكتفى بذلك سبحانه وتعالى حتى زاده ودعاكِ إلى التوكل عليه، وأنتِ لو وجدتِ مخلوقًا يتكفل بأمركِ، وهو ناصح في ذلك عالم بمصلحتكِ اعتمدتِ عليه وسكنتِ، فلِم لا تعتمدين على ملك الملوك وقد دعاكِ إلى نواله ومزيد بره وإفضاله فأيهم يبقى لكِ؟!.

يا أخي في ملاحظة هذه الآيات وأمثالها وأي طلب يبقى لك لسواه

إذا شربت من فرات هذه المنازل، وليست هذه المنازل يا أخي والمقامات إلا لمن دخل حصن لا إله إلا الله، ولهذا ورد في الأثر القدسي: «لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي». وورد في الحديث الشريف: «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّة» [صحيح البخاري].

ولهذا من تحقق بمعنى لا إله إلا الله كانت جنته عاجلة، فإن الجنة لم تشرف بكثرة المآكل والمشارب والمناكح فإن ذلك تشارك فيه البهائم، وإنما المعنى الذي شرفت به هو الحضور الدائم، وهذا نقد عاجل لمن تحقق بمعنى لا إله إلا الله، ولهذا قال في الحكم:

النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم. فشد المئزر يا أخي في تصحيح هذا المقام وفارق إخوان السوء وسافر في بيداء هذه الفيافي مع السادة الكرام. وقال بعضهم:

أيها الخاطب معنى حسننا ... مهرنا غالٍ لمن يخطبنا
جسدٌ يفنى وروحٌ للعنا ... وجفونٌ لا تذوقُ الوسنا
وفؤادٌ ليسَ فيه غيرنا ... فإذا ما شئتَ أدِّ الثمنا
وافنَ إن شئتَ فناءً سرمدا ... فألفنا يدنى إلى ذاك الفنا
واخلعِ النعلين إن جئت إلى ... ذلك الوادي ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعًا ... وأزل ما بيننا من بيننا
فإذا ما قيل من تهوى فقل ... أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وقوله: (وليس إلا له منه تبديه) أي ليس للسالك من الأحوال

والمقامات والمكاشفات والأذواق إلا ما كان، أي منه في استعداد، فإن الحق تعالى يتجلى لكل سالكٍ بحسب استعداده، فكلما ترقّى السالك في سلوكه، أشرقت عليه تجليات أعلى مما تقدم، ولا يزال يروى ويظمأ، ويكون في ريّه الظمأ، كما تقدم من الإشارة إليه من كلام الناظم.

والحاصل أنه لا يزال السالك في سلوكه من التجليات والمقامات إلا ما سبق علمه تعالى ولم يتعلق إلا بما في استعداده، وإن كان ذلك الاستعداد أيضًا من فيضه الأقدس، يتجلّى به في فيضه المقدس: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا المعنى قال العارف أبو عبد الله القرشي: الزم الأدب، وحظك وحدك من العبودية، ثم لا تتعرض لشيء، فإن أرادك له أوصلك إليه. وقال في الحكم: ليس الشأن أن ترزق حسن الطلب ولكن الشأن أن ترزق حسن الأدب.

فالطريق كله آداب فإن الحق تعالى يتجلى لكل سالك بحسب استعداده.

والآداب ثلاثة: آداب الشريعة، وآداب الطريقة، وآداب الحقيقة.

فآداب الشريعة: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وآداب الطريقة: شهود المنّة.

وآداب الحقيقة: معرفة ما لك وما له سبحانه وتعالى، فلك الفقر والعجز والضعف والذلة، وله الغنى والقوة والعزة. ولهذا قيل: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرف نفسه بالعجز

عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالذلة عرف ربه بالعزة.

والحاصل أن العبودية لها أوصاف أربع، والربوبية لها أوصاف أربع:

فأوصاف العبودية: الفقر والضعف والعجز والذلة.

وأوصاف الربوبية: الغنى والقوة والقدرة والعزة.

فكلما تحقق السالك بوصف العبودية أمره الرب بوصفٍ من أوصاف الربوبية.

قال في الحكم: كن بأوصاف ربوبيته متعلقًا وبأوصاف عبوديتك متخلّقًا.

وقال أيضًا: تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بفقرك يمدك بغناه، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته، تحقق بذُلِّك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته.

ومن هنا يفهم السر في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. [الإسراء: ١]. لم يسمه في هذا المقام بمحمد ولا بأحمد ولا برسول ولا بنبي، وإنما وصفه بالعبودية للإشارة إلى أن مقام الإسراء لا يحصل إلا من باب العبودية، كما أنه ﷺ أُسري به ولم يصل إلى إسرائه إلا من باب عبوديته، كذلك ورثته لهم إسراء بحسب استعدادهم، ولا يصلون إلى إسرائهم إلا من الباب الذي دخله به مورثهم ﷺ.

فعض يا أخي بالنواجذ على العبودية، واجعلها واسطة عقد أمورك، وتمسك بها في بطونك وظهورك.

وقال في الحكم: مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية، خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك، إذا أردت أن تعرف

قدرك عنده فانظر بماذا أقامك. فعليك بمتابعته ﷺ في الأفعال والأقوال والأحوال تكن آخذًا من العبودية بالنصيب الوافر.

له الشهادة غيب والغيوب له شهادة والفناء المحض يبقيه

أي السالك المذكور الشارب من شراب القوم أصفاه المستغرق في محبته لمولاه الشهادة غيب والغيوب شهادة وتفصيل ذلك وإيضاحه أن السالك طريقه الإعراض عن السوى والإقبال على المولى، الذي هو معنى لا إله إلا الله فإذا قطع علائقه الظاهرة والباطنة وأقبل بكليته على الذكر الذي أخذه من شيخه بآدابه، فيفنى عن الشهادة وهو عالم الملك، ويغيب عنها لدخوله في غيوب عالم الملكوت، فتصير الشهادة أي عالمها غائبًا عنه وعالم الغيوب الذي هو عالم الملكوت شهادة له، أي معاين له يراه بعين بصيرته، فعالم الملك ما يرى بعين البصر، وعالم الملكوت ما يرى بعين البصيرة، وهذا هو الفناء الأول، ولا يزال في ذكره وورده لا يفتر عنه، فإنه كما أن الوقوف مع عالم الملك حجاب كذلك الوقوف مع عالم الملكوت **حجاب، إلا أن الأول حجاب ظلماني، وهذا حجاب نوراني، فلا يزال** السالك في سيره حتى يقطع هذا العالم أيضًا، وأكثر ما يحتاج إلى المشايخ في قطع هذا الحجاب، فإنه عند ظهوره ربما ظنّ السالك أنه وصل إلى المقصود فيسكن إليه فيحجب به وينقطع عنده.

فإذا جاوز عالم الملكوت: الذي هو عالم القلب باستقامته دخل في عالم الجبروت: الذي هو عالم الروح وهذا العالم غيب بالنسبة إلى عالم الملكوت، وهذا هو مبدأ الفناء الثاني ولا يزال مستمرًا في سلوكه ملازمًا

على إقباله حتى يدخل على حضرة اللاهوت: وهو عالم السر، وهذا هو كمال الفناء الثاني ويسمى فناء الفناء، فيفنى حينئذٍ عن الخلق ويفنى عن فنائه، وهذا منتهى سير السالك وهو الفناء المحض الذي أشار إليه الناظم، ومن هنا يرجع إلى عالم البقاء والفرق ويصلح بعد ذلك للإرشاد، فمن لم يستكمل مقام الفناء لم يحصل له مقام البقاء، وهكذا.. وكل ذلك من نتائج الذكر المأخوذ من المشايخ مع رعاية الآداب المعروفة عندهم. وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

ذكرَ الإله الزم هديت لذكره ... فيه القلوب تطيب والأفواه
واجعل حلاه تقاه إن أخا الحجا ... يا صاح من كانت حلاه تقاه
واستعمل التفكير في ملكوته ... مستغرقًا في الكشف عن معناه
ولتخلعِ النعلين خلعَ محقّقٍ ... خلَّى عن الكونين في مسراه
ولتفن حتى عن فنائك إنه ... عين البقاء فعند ذاك تراه

له لدى الجمع فرق يستضيء به ... كالجمع في فرقه ما زال يلقيه

أي السالك المذكور عند كماله وتمكنه، فرق عند جمعه يستضيء به، وجمع في فرقه، ولا يزال يلقيه ويبديه، أي يصير السالك في كماله حاويًا للجمع والفرق، فلا فرقه يحجبه عن جمعه ولا جمعه يحجبه عن فرقه، فهو مع الحق في الباطن وهو جمعه ومع الخلق في الظاهر وهو فرقه، فشهود الأشياء كلها من الله إيجاد جمع، وشهودها من الخلق استناد

فرق، على لسان العارف موجود، والجمع بقلبه مشهود. قال في الحكم إشارةً إلى هذا المعنى: إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك.

وقال أيضًا: متى جعلك في الظاهر ممتثلًا لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم عليك المنّة. ومن تحقق في هذا المقام استوى عنده السبب والتجريد. فلهذا قال رويم: ليس التوكل بالسبب ولا بترك السبب، وإنما طمأنينة القلب إلى الله تعالى. ولهذا قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. [النور: ٣٧]. فالرجل من كان ظاهره في الأسباب، وقلبه مع مسبب الأسباب، ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق.

حكاية: (حج بعض العارفين فسئل عن أعجب ما رأى في حجه فقال: رأيت شخصًا أخذ بحلقةٍ من حلق الكعبة وهو يطلب شيئًا من الدنيا، ورأيت شابًا في منى باع متاعًا بنحو ثلاثين ألف درهم وما غفل في بيعه ذلك عن الله لحظة، فأخذتني غيرة حتى تقيأت دمًا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

يدنو ويعلو ويرنو وهو مصطلم في الحالتين بتمييز وتوليه

أي يدنو السالك بتحققه بأوصاف عبوديته، ويعلو بإمداد مولاه بأوصاف ربوبيته، فإن العبد كلما دنا وتحقق بأوصاف عبوديته علا وارتفع وأمده الرب بأوصاف ربوبيته، فدنوّه عينُ انخفاضه وانخفاضه عين ارتفاعه وسموّه، وقوله: (يرنو وهو مصطلم في الحالتين) أي حالة تحققه بعبوديته، وحالة تعلقه بربوبية مولاه، بتمييزه هذا راجعٌ إلى تحققه بعبوديته، وتوليه هذا راجعٌ إلى تعلقه بربوبية مولاه، فالتمييز مناسبٌ للتحقيق بالعبودية لأنه

جهة فرقه، والتوليه مناسبٌ لإشراق أوصاف الربوبية لأنها جهة جمعه، فهو جامعٌ فارقٌ فجمعه يقتضي التوليه وفرقه يقتضي التمييز، وهذا حال أهل الكمال.

لـه الوجـودات أضـحت طـوع قدرتـــــــــــــــــــه ومـا يشـاء مـن الأطـوار يأتيـه

أي أضحت الموجودات مطاوعة لقدرته، موافقة لاختياره وإرادته، لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء، وورد أن النبي ﷺ كان مع عمه أبي طالب في بعض الأسفار فعطش أبو طالب فشكا ذلك للنبي ﷺ فضرب بيده على الأرض وأخرج منها ماءً فسقاه، فقال: ما أطوع ربك لك يا محمد، فقال: ﷺ: «وأنت يا عم لو أطعته أطاعك».

ولا يتحقق هذا المعنى إلا في من تحقق بكمال عبوديته وخرج من أوصاف بشريته، وذهبت عنه الاختيارات والإرادات، وصارت إرادته عين إرادته تعالى، يستحلي الشدائد ويتلذذ بها، كما يستحلي الشهوات ويتنعم بها، يشهدُ مِنَحَهُ في مِحَنِهِ، ويطفئ ناره بنورِه، إن وقع في نيران المصائب وتعرضت له الأكوان قائلةً له: ألكَ حاجة؟ يقول لها: أما إليك فلا، وأما إليه فبلى، فإذا عادت وقالت له: سله، يقول لها: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فمثل هذا تعود عليه نار المحن بردًا وسلامًا، فإن هذا هو المقام الإبراهيمي الذي أُمرنا باتباعه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾. [النحل: ١٢٣]. فهو المخاطب والمراد هو وورثته: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾. [الأحزاب: ٢١]. ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾. [آل عمران: ٣١].

فمن حصل له مقام المتابعة حصل له مقام المحبة، فأي شيء يستغرب منه وما يشاهد منه إنما هو من الله وإنما ذلك العبد مظهر من مظاهره تعالى، لخروج ذلك العبد عن أفعاله وأوصافه ووجوده، فلا يرى فعلًا إلا فعل مولاه، ولا وصفًا إلا وصف مولاه، ولا وجودًا إلا وجود مولاه.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: لن يصل العبد إلى الله تعالى حتى تفنى أفعاله في أفعاله وأوصافه في أوصافه وذاته في ذاته.

قال الشيخ رسلان: كلك شرك خفي، وما يتبين لك توحيدك إلا إذا خرجت عنك، وكُلّما كُشِفَ لك بَانَ لَكَ أَنَّهُ هُوَ لا أنت، فاستغفر منك وشاهد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. [الأنفال: ١٧]. ومن ذلك خرق العوائد الصادرة عن أولياء الله فهي صادرة عنهم في الظاهر وهم بمعزل عنها في الباطن لأنهم لا يرون لهم فعلًا ولا وصفًا ولا وجودًا، وهذا معنى قولهم: «العارف كائن بائن». ومن هنا يظهر لك لمعة من معنى قوله ﷺ في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأعطينّه وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ». [صحيح البخاري].

فمن كان الحق سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله كيف يُستغرب منه صدور شيء من الخوارق؟ وعدا عن فهمك وعملك وخيالك في فهم هذا الحديث وأمثاله، لأنه من المتشابه الذي لا يليق بأمثالها إلا الإيمان به، على ما أراد الله ورسوله، كما هو طريقة السلف، وطريقة القوم، لأن علوم

القوم فوق طور العقل، فلا يتوصل إليها إلا بالذوق، حتى يلوح للسالك ذوقٌ من أذواق هذا الطورية، وينفتح قلبه للحقائق، فيفهم بقدر ما يُفهمه الله على حسب استعداده، وغاية ما يعبر المعبر إذا تنزل في عالم العبارات أن يقول: المراد من هذا الحديث بيان حال الفناء، والخروج عن أوصاف البشرية، وأما المعنى الذوقي فلا يفهمه إلا أربابه. قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وإلى هذا المعنى أشار ﷺ: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ ولكن بشيءٍ وقر في صدره». وقال ﷺ: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا». قال الحافظ ابن حجر: هو غير ثابت، وقال القاري: هو من كلام الصوفية. والمعنى: موتوا اختيارًا بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطرارًا بالموت الحقيقي. وهذا الموت عين الحياة، فأمت نفسك يا أخي حتى تحيا، واجثُ على ركبتيك بين السادة في كل محيا.

للقوم سر مع المحبوب ليس له حدّ وليس سوى المحبوب يحصيه

قال ؛: >لي وقتٌ مع الله لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل<. وهذا حكم ورثته، لهم مع الله سرٌ لا يصل مخلوقٌ إليه حتى الملك، وهذا هو الذكر الخفي الذي لا يشعر به ملك، وذلك عند تشرفهم بتجلي الذات، فإنه عند ذلك تذهب العبارات، وتمحى الإشارات، ويكلّ اللسان، ويبهت الجنان، وهذا أمرٌ لا يسعه إلا الإيمان، حتى تلمع لامعةٌ من مقام الإحسان.

وإذا لـــم تـــر الهـــلال فســـلم لأنـــــــاس رأوه بالأبصـــــــار

وانظر إلى قوله في الحديث القدسي: >مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلا أَرْضِي، وَلَكِنْ وَسِعَني قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ<. [قال السيوطي: لا أصل له].

فقلبٌ وسع الحق كيف يمكن أن يعبر عما فيه؟ وإن كان ذلك الوسع مما لم تفهمه العقول وإنما يقبله الإيمان ثم الإحسان؟ قال أبو يزيد: لو أن العرش في زاويةٍ من زوايا قلب العارف لما أحس به.

فقلبٌ هذه صفته لا يحيط بأسراره ولا يعلم ما فيه إلا مولاه.

فعليك يا أخي بالتحبب لأمثال هذه القلوب واخضع لها لعل الله ينظر إليها نظرةً فيراك فيها، فيجذبك جذبةً خيرًا لك من عمل الثقلين. قال سهل ~: إن الله ينظر إلى قوم كفاحًا، وإلى قوم من قلوب قوم، فتحبّبوا إلى قلوب أولياء الله، فلعل الله ينظر إلى قلوبهم فيراكم. وما أحسن ما قيل:

لـــي ســـادة مـــن عـــزهم أقـــدامهم فـــوق الجبـــاه
إن لـــم أكـــن مـــنهم فلـــي فـــي حـــبهم عـــز وجـــاه

بـه تصرُّفهم فـي الكائنـات فمـا يقضـــــــــــــــــيه يشـــاء شـــاؤوا ومـــا شـــاؤوه

أي بذلك السر تصرف القوم في الكائنات فما يريدون شيئًا إلا الذي أراده، ولا بد أن يقع لأن مرادهم تابع لمراده، فمنهم من يعلم مراد الله في ذلك السر قبل وقوعه لكشفٍ يمنّ الله عليه به، ومنهم من لا يعلم إلا بعد وقوعه، فكلما وقع شيء قالوا: هذا عين

مرادنا وإنه عين مراد الله لوقوعه لأنه لا يقع إلا ما أراد، فكلا القسمين من السادة لا يقع في الكون إلا ما أرادوا لأنهم لا يريدون إلا ما أراد. وصاحب هذا المقام لا يعتريه أبدًا همٌّ وغمٌّ؛ لأن الأشياء كلها موافقة لمراد الله، ومرادنا تابع لمراده. ولهذا قال ‘ لمن قال له: أوصني؛ قال: >لا تغضب<. ثم قال: أوصني. قال: >لا تغضب<. فكرر عليه ‘ إشارةً للتحقيق بهذا المقام، يعني كن عبدًا لمولاك، لا تختر لأمرك شيئًا واجعل إرادتك تابعة لإرادته، وكيف يعتري الغضب من كان هذا مقامه؟

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلًا رأيت جميع الكائنات ملاحَا

ولهذا لما شكا شخصٌ إلى النبي ‘ الهمّ قال له: >قل الله ربي لا أشرك به أحدًا<. فأشار ‘ في دوائه إلى أن الهمّ سببه الشرك فعلاجه الرجوع إلى التوحيد لأن علاج كل شيء ضده. فتحقق يا أخي بهذا المعنى. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ~: إذا أردت عز الدارين فادخل في طريقنا هذا يومًا أو يومين. وما أحسن ما قال بعضهم:

حرام على من وحَّد الله ربَّه وأفرده أن يحتذي أحدًا رفدَا
فيا صاحبي قف بي مع الحق أموت بها وجدًا وأحيا بها
وقفة وجدَا
وقل لملوك الأرض يجهدن فذا الملك ملك لا يباع ولا
جهدها يهدى

رأى شخصٌ إبراهيم بن أدهم وهو يرقع ثوبه فقال له: ما عوضك الله
يا إبراهيم عن ملك بلخ؟ قال: شيء لا يصل إليه عقلك، ولكن أُظْهِرُ لك شيئًا مما تفهمه، فرمى بإبرته إلى البحر ودعا الله أن يردّها عليه، فإذا كل حوتة في فمها إبرة من ذهبٍ، فقال: يا رب ما أردت إلا إبرتي، والتفت إلى ذلك الشخص، وقال: هذا مما

أعطاني مما تفهمه.

وما أحسن ما قال صاحب الحكم في مناجاته: إلهي ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلًا ولقد خسر من بغى عنك متحولًا، كيف يرجو سواك وأنت ما قطعت الإحسان، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان.

إن كنت تعجب من هذا فلا عجب لله في الكون أسرار تُرى فيه
لا شيء في الكون إلا وهو ذو أثر فما المؤثر غير الله قاضيه

حاصل ما في هذين البيتين جوابًا عما تستشكله العقول الضعيفة وتستغرب صدوره من مخلوق مثلها، فقال: إن كنت تعجب أيها المحبوب من صدور أمثال هذه الخوارق من السادة الكرام فلا عجب، فإن الأشياء كلها الصادرة عنهم في الظاهر إنما هي صادرة من الله في الحقيقة، ولله في الكون أسرار ترى فيه، وزاد الناظم وحقق ذلك بقوله: لا شيء في الكون ذو أثر إلا والله سبحانه وتعالى هو المؤثر والقاضي فيه، فمع حفظ هذا المعنى آنفًا فصحح يا أخي في أحوال القوم الإيمان لتحوز الولاية الصغرى وتندرج إلى مقام الإحسان، فالمرء مع من أحب وهم القوم لا يشقى جليسهم فكيف يشقى محبهم وأنيسهم؟

ليس التّضادُدُ منّاعًا لقدرته من حيث قدرته يأتي تعاليه
وإنّما من وجوه الحادثات له تمانع في محلِّ ذاك يحويه

لمّا بيّن أن كل ما يظهر من خرق العوائد على يد أولياء الله من قدرته تعالى ولله في الكون أسرار ترى فيه، أراد أن يبيّن الكلام على ذلك فقال: إن قدرته تعالى عامّة ولا يمنع التضادد من حيث أنها قدرته تعالى، وإن امتنع من جهة الحوادث وكونها

محلًا له وأما إذا خرج الأمر عن العادة وانخرقت العوائد فلا مانع من ذلك، ومن ذلك ما يحكى عن بعض العارفين أنه طُلب عند الإفطار في رمضان فأجاب للإفطار في نحو خمسين موضعًا، وحضر عند الجميع وهو لم يفارق موضعه. فانظر إلى هذا المعنى ما أبعده عن العادة! فإن كون الإنسان في مكانه يضاده كونه في مكان آخر فكيف بأمكنة؟ وقد تحقق عن مثل هذا العارف لخروجه عن أوصاف البشرية وفنائه عن أفعاله وأوصافه ووجوده، ولم يبق فيه إلا فعل الحق ووصفه ووجوده، وأما فعله ووصفه ووجوده فقد فني، وهكذا من خرق من نفسه العوائد خرقت له العوائد. والأخبار الواردة عن أهل الجنة في مثل هذا المعنى كثيرة ومن تحقق بأحوال العارفين كانت أحوال أهل الجنة نقدًا عاجلًا. قال أبو يزيد ~: إذا أعطاك حلاوةً من ذكره فماذا تريد بالجنة؟ وقال في كلام آخر: رأيت أعظم شيء ما يعذبني الله به فلم أجد أشد عذابًا من الغفلة. فادخل يا أخي جنة العارفين بدوام حضورك، واقطع العلائق، وتبتل إلى مولاك، في بطونك، وظهورك، وقد ورد: >أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة لا يتحسرون إلا على ساعة مرت لهم في الدنيا بغير ذكر الله<. فاحرص على هذه الحالة التي إذا دخل أهل الجنة الجنة لا يتحسرون إلا عليها وأنفق أوقاتك وأنفاسك فيها.

وللفقيـــر وجـــوه لـــيس يحصـــــــــــــرها عَدٌّ وكل وجود فهو واديه

الفقير: هو الفاني الخارج من أوصاف بشريته المتحقق بعبوديته، ومثل هذا تشرق عليه أوصاف الربوبية وتسطع عليه من مشرقه أنوار الخصوصية، وتصدر من مظهره القدرة الإلهية، ويكون متخلقًا بأوصاف مولاه، كما ورد: >تخلّقوا بأخلاق الله<. فتعم رحمته الخلق وتواضعه لكل فرد، حتى كأن الخلق كلهم

أجزاؤه فيتنعم إذا تنعموا ويتألم إذا تألموا، ويقابل السيئة بالحسنة، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمّن ظلمه، كما وقع للنبي ‘ حيث شجّ الكفار رأسه الشريف وكسروا رباعيته فقال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: ادعُ عليهم يا رسول الله، فقال: >اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون<. فدعا لهم ‘ بالهداية واعتذر عنهم بعدم العلم، وكذلك ينبغي لورثته إذا بلغه من أحد سيئة أن يقول: اللهم اهدِ فلانًا فإنه لا يعلم، فمن اقتدى به ‘ في مثل هذه الخصلة كان له من الإرث النصيب الوافر، ومن تحقق بهذا المقام كانت أوصافه لا تحصر، ومحاسنه تتزايد في كل وقت وتظهر.

لو كنت تدري وجود العبد كنت ترى فيه الكمال كما النقصان تنقيه

أي لو كنت ترى أيها الطالب الراغب وجود العبد أي حاله وكماله، ويظهر لك ذلك بنور بصيرة يمنحك الله إياها لرأيت فيه الكمال ونفيت عنه النقصان، وتمسكت بأذياله وحُمتَ حول حمى فضله ونواله، وهذا شروع الناظم في تحريض السالك على تحصيل الرفيق في الطريق، فإن طريق الله لا يمكن قطع فيافيها ولا صلي مسافة بواديها إلا بالرفيق، وهو الشيخ المرشد الكامل، مثل هذا لا يمكن الوصول إليه ومعرفته إلا بعنايةٍ من الله وفضلٍ منه.

قال في الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

أي كما أنه لا دليل ولا موصل إليه تعالى إلا فضله، كذلك لا دليل ولا موصل إلى أوليائه إلا فضله، فإنهم أبواب الحق وإذا دعاك الكريم إلى بابه فلا يردّك خائبًا، فالزم إن ظفرت يا أخي

بواحدٍ منهم وعفر الخد بثرى تلك الأعتاب وقل:

لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبي ونقصاني
فإن رضيتم فيا عزي ويا شرفي وإن أبيتم فمن أرجو لعصياني

والعبد هذا هو الحر الذي حصلت له الخلافة جل الله معطيه

شرحُ الناظم يبين أوصاف الشيخ الذي يحرص عليه بعد أن وصفه بالعبودية فقال: (والعبد هذا هو الحر الذي حصلت له الخلافة) أي الشيخ المشار إليه: هو المتحقق بالعبودية ومن تحقق بها ظهرت فيه الحرية وتمت له الخلافة الإلآهية، لأن حقيقة العبودية الخروج عن أوصاف البشرية، ومن خرج من أوصاف البشرية خلعت عليه أوصاف الربوبية، فصار مظهرًا من مظاهر الحق وخليفةً من خلفائه راجعًا لهداية الخلق.

أوصافه ظهرت من وصف وكله مظهر يبدي تحليه مبدعه

أي أوصاف هذا العبد ظهرت من وصف مبدعه،أي أنه تحقق بالفناء، فأفنى أفعاله في أفعاله، وأوصافه في أوصافه، وذاته في ذاته، فلم يبق كله إلا مظهرًا من مظاهر الحق يبدو في تجليه، أي يظهر فيه فعل الحق، ووصفه، ووجوده، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. وهذا وإن كان واردًا في حقه ‘ فللوارث من ذلك نصيب وهذا معنى يدق على الفهم إدراكه ولا يسعه إلا الإيمان، وغاية ما يتنزل في التفيهم ويمثل في علم التفسير بالحديد إذا وضع في النار فاحمر وصار محرقًا فظهرت فيه أوصاف النار، فالحديد

حديد، والنار نار، ومع ذلك يشاهد أوصاف النار في الحديد، وهكذا العارف، وإن ظهرت فيه أوصاف الربوبية وأشرقت عليه فهو باقٍ في عبوديته، فالعبد عبد، والرب رب، فكلما أشرقت عليه أوصاف الربوبية أكثر وازداد في تحققه بعبوديته أكثر، تحلى بخلع الأوامر واجتناب النواهي ذوقًا وحالًا، كما قال ‘: >لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْت بِهِ<. [فتح الباري لابن حجر ـ الإبانة الكبرى لابن بطة ـ حديث حسن صحيح وَرِجَاله ثِقَات وَقَدْ صَحَّحَهُ النَّوَوِي فِي آخِر الأرْبَعِينَ]. وهذا أعلى المراتب الإيمان لا يكمل إلا للعارف.

إذا رُئـيْ ذُكـر المـولى برؤيتـه وفـاز بالسـعد والتقريـب رائيـه

أي إذا رئي هذا العبد ذُكِر المولى برؤيته، كما ورد في وصف بعض الصالحين: «الذين إذا رأوا ذكر الله». لأن نور قلبه مشرق على وجهه: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾. [الفتح: ٢٩]. فمن رأى نور الحق الساطع من قلبه على وجهه ومن تمّ له ذلك فاز بالسعد والقرب. قال ابن علوان ﷺ:

سـعدت عـين رأتـك وقـرت وكـذا عـين رأت مـن رآك

ومثلوا ذلك للشمس إذا أشرقت على الجدار تاركة الجدار الآخر لمواجهة ذلك الجدار الذي أشرقت عليه الشمس، وهذه طريقة معروفة عند المشايخ يسمونها بالرابطة، وهي رؤية وجه الشيخ فإنها تثمر ما ينمي الذكر، بل هي أشد تأثيرًا من الذكر لمن عرف شروطها وآدابها، وذلك إنما يكون للشيخ الكامل العارف المستشرف بالتجليات الذاتية، ومن ذلك كان تربيته ﷺ للصحابة، وكانوا يستغنون برؤية طلعته الشريفة عن كل

رياضة ومجاهدة، وينتفعون بأنوار طلعته السعيدة أكثر مما ينتفعون بالأذكار في مدة مديدة، ولهذا كانت درجة الصحابة لا تضاهى والاجتماع بالمشايخ ـ ولو ساعة ـ مرتبةً بها يتباهى.

اجتمع شخصان في طريق ضيق فقال أحدهما للآخر: تقدم. فقال له: بم أستحق التقدم عليك؟ قال: لأنك صاحبت الجنيد نصف يوم، فجعل مصاحبة الجنيد نصف يوم فضيلةً يستحق بها التقدم عليه، وهكذا أهل الإنصاف.

عبد عليه سمات العزّ لائحة وخلعة العزّ والتحكيم عاليه

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. فالمؤمن: هو العبد الذي تُرى عليه سمات العز لائحة، وطيب خلع العز والتحكيم عليه من كل جانب فائحة. قال صاحب البردة:

كأنه وهو فرد من جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وهذا البيت وإن كان في وصفه ، فللوارثين من ذلك النصيب الوافر، وجميع أنوارهم إنما هي من نور قلبه الزاهر.

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرفًا من البحر أو رشفًا من الدِّيَمِ

قال بعضهم: دخلت على ذي النون المصري فرأيته هو وأصحابه مراقبين فانتفعت بالرؤية قبل سماع الكلام، وهكذا العارف تستفيد من لحظةٍ برؤيته قبل أن تسمع شيئًا من لفظه، وترشدك أحواله من قبل أن تصل إلى سمعك أقواله. قال بعضهم في معرفة مثل هذا العبد:

إذا أنت مع شخص جلست ولم تجد ولا تصحب الأغيار واختر مصاحبًا
حضورك ينمو فاجتنبه وفارق يفيدك جمع القلب من غير عائق

إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته فاسلك على سنن طابت مساعيه

أي: إنْ كنت تقصد أيها الطالب أن تحظى بصحبة هذا العبد المتحقق بعبوديته، وهو الشيخ الكامل المرشد الذي تم فناؤه ورجع إلى بقائه بخلعٍ ربانيةٍ من مولاه، فاسلك على سنن أي طريق طابت مساعيٍ تلك الطريقة بأن تتأدب بين يديه بالأدب النافع، وتنكسر لحضرته انكسار الذليل الخاضع، لا ترى لك حالًا ومقامًا ولا تطلب منه تعظيمًا ولا احترامًا، بل تكن همتك الخدمة ومعاملتك معه التزام الحرمة، لا تخالفه في ظاهرك ولا تعترض عليه في باطنك، قالوا: من قال لشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبدًا. بل تكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل.

أخلص ودادك صدقًا في محبته والزم ثرى بابه واعكف بناديه

أخلص ودادك أيها الطالب الراغب بالصدق في محبة الشيخ والزم ثرى بابه تمسك بتراب أعتابه، واعكف بناديه ولازم الطاعة بامتثال أمره واجتناب نواهيه، حتى يكون مرادك عين مراده وتشاركه في سفره وزاده، قال ‘: >لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به<. وكذلك لا يكون الطالب طالبًا حتى يكون هواه تبعًا لما أمره به شيخه، إذ الوارث مسلكه مسلك مورثه، وجميع ما تأخذ من الشيخ كأنك تأخذ منه ‘، لأن الشيخ هو الذي تحقق بكمال المتابعة له ‘ قولًا، وفعلًا، وحالًا، فإذا خالفته في شيء من ظاهرك وباطنك فكأنك خالفته ‘، وإن لم

تعتقد في شيخك هذا المعنى لم تنتفع به، وإن اعتقدت فيه ذلك وجب عليك احترامه، ولزمتك أوامره وأحكامه، وإذا أشكل عليك أمر من أحواله في الظاهر فاذكر قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام وتمسك بها في ذلك الخاطر، وأوّل ما أشكل عليك وإن عجزت عن التأويل فارجع إلى التسليم، فإن الأمر دائر بين أن تنسب النقص إليك أو إلى شيخك فنسبته إليك أولى، وسلم تسلم، واغتنم مرتبة الإيمان، حتى تصل مرتبة الإحسان.

وقد ورد أَنَّ الأَنْصَارَ قَالَتْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: وَأَعْطَى قُرَيْشًا! وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ، إِنَّ سُيُوفَنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قُرَيْشٍ وَغَنَائِمُنَا تُرَدُّ عَلَيْهِمْ؟ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ، فَدَعَا الأَنْصَارَ فَقَالَ: >مَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ<؟ وَكَانُوا لا يَكْذِبُونَ. فَقَالُوا: هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ. قَالَ: >أَوَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالْغَنَائِمِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ، إِلَى بُيُوتِكُمْ، لَوْ سَلَكَتِ الأَنْصَارُ وَادِيًا ـ أَوْ شِعْبًا ـ لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ<. [صحيح البخاري وصحيح مسلم].

فانظر يا أخي لما أشكل الأمر على بعضهم ولم يسعه في ذلك التسليم فكيف ذكر اعتراضه عليه ، وأبداه، وانظر إلى البعض الآخر كيف سلم أمره إليه ، وأذعن، ثم لما أزال الشبهة ، عن الأمر انجلى الغبار، وطلعت الشمس، وانطمست نجوم الأغيار، فاهتدى الفريقان، بما سطع لهم من الأنوار، فافهم يا أخي الطريق وأزل من قلبك ساحة أوساخ التعويق، واجعل الشيخ قبلتك حتى تصل إلى القبلة الحقيقية، واقتف بآثاره حتى تفوز على الاقتفاء بآثار خير البرية، وحسن الاعتقاد حتى تسود مع من ساد.

واســـتغرق العمـــر فـــي آداب وحصل الدرّ والياقوت من فيه صـــــــــــــــــــحبته

واستغرق العمر يا أخي في صحبة شيخك حتى تعرف آداب الصحبة، وتنتقل من صحبة المخلوق إلى صحبة الخالق، فإن جميع ما يطلب للشيخ من الآداب يطلب منك بعد ذلك أن تعامل به الرب، فلا يصلح للعبد عبودية حتى يكون مراده تابعًا لمراد مولاه، من أحبه لم يؤثر عليه شيئًا من مراداته، وإذا عرفت الآداب مع الشيخ وتأدبت بآدابه في صحبته كنت أهلًا لأن تصير بعد ذلك من أهل الله وخاصّته، وهكذا شأن الملوك إذا أرادوا أن يقربوا عبدًا ويجعلوه من خاصّتهم جعلوه عند من يعلمه آداب الخدمة، فإذا كان الملك المجازي لا يرضى لخدمته وحضرته إلا عبدًا مؤدبًا فكيف بملك الملوك، واجتهد يا أخي في معرفة الآداب لتكون من أهل المنادمة وخاصّتهم والمجاور في منازل الأحباب وما أحسن ما قال بعضهم:

أعـــط المعيـــة حقهـــا والـــزم لـــه حســـن الأدب
واعلـــم بأنـــك عبـــده فـــي كـــل حـــال وهـــو ربّ

وقال بعضهم: إن هذين البيتين قد تضمنا خلاصة ما في الإحياء إذ المقصود من الإحياء كله معرفة الآداب فالطريق كله آداب.

لهذا قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي في تعريف التصوف: وهو تربية النفس في العبودية وردّها إلى أحكام الربوبية.

قوله: (وحصل الدرّ والياقوت من فيه) أي: إنك أيها الطالب إذا استغرقت عمرك في صحبته حصل لك الدرّ والياقوت من فيه، أي حصل لك سماع المعارف والحقائق والمعاملات الدقيقة والإشارات النفيسة التي هي جواهر ويواقيت لأهل الأذواق، وذلك لا يحصل إلا في مدة مديدة إذ هم رضي الله عنهم لا يتكلمون إلا بقدر الحاجة وبحسب المصلحة،

فبطول الصحبة تحصل الأحوال المختلفة يذكرون فيها ما يناسب كل حال بحسب كل شخص فتتنوع الفوائد وتستزيد الفوائد، ولهذا كان الصحابة ينتفعون كثيرًا بالأعراب لما يأتون ويسألونه ﷺ فيجيبهم بحسب سؤالهم، فيستفيد الصحابة من ذلك علومًا كثيرة ولو لم يمكنهم السؤال، لأنهم لا يتكلمون عنده ﷺ إلا بقدر الضرورة لمزيد آدابهم، ورعاية أحوالهم، وحفظ قلوبهم، عما لا يعني.

ولا يعنيك يا أخي إلا أدبك اللازم واشتغال سرك به، فمتى غفلت لحظة بسواه كان ذلك من أعظم الذنوب عند من كان همه الاشتغال بالله.

وابذل قواك وبادر في أوامره إلى الوفاق وبالغ في مراضيه

ابذل أيها الطالب الصادق قواك وحواسك وظاهرك وباطنك في خدمة شيخك، وبادر في امتثال أوامره ووافقه في جميع ما يهوى واجعل هواك تابعًا لهواه، وبالغ فيما يرضه واخضع وانكسر بين أياديه.

واحذر بجهدك أن تأتي ولو خطأً ما لا يحب وباعد عن مناهيه

واحذر واجتهد وبالغ في طاعته ولا تأت بما لا يحب ولو خطأً وابتعد عما ينهاك عنه واكرهه، فإن وقع ذلك منك ظاهرًا استغفرت باطنًا، وإن وقع منك باطنًا استغفرت أيضًا باطنًا واعتذرت ظاهرًا، فإنهم أهل السماحة يُقيلون العثرات ويقبلون الأعذار متخلقون بأخلاق مولاهم فإن الله يحب التوابين وهم كذلك يحبونه، وكلما طرأ منك ذنب فاغسله بصابون التوبة والاعتذار، وسبعه متربًا بالذلة والانكسار، فليس الشأن ألّا يقع منك ذنب إنما الشأن ألّا تصرّ على الذنب، ليس الشأن ألّا يتدنس ثوبك إنما الشأن ألّا تصرّ على تدنيس ثوبك، فكلما دنس ثوبك

فاغسله بصابون الظاهر، وكلما تدنس قلبك فاغسله بصابون الذلة والانكسار، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾. [آل عمران: ١٢٣].

وكن محبّ محبيه وناصره والزم عداوة من أضحى يعاديه
واعلم يقينًا بأن الله ناصره إن لم تكن ناصرًا فالله يكفيه

وكن أيها الطالب الصادق محب محبي شيخك وناصرهم وعاد معاديه وباينهم، فإن هذه هي حقيقة المحبة أن تحبه وتحب من يحبه وتبغض من يبغضه، وهي ترجع إلى المحبة في الله والبغض في الله، لأن الشيخ هو المتحقق بكمال المتابعة له ﷺ أفعالًا وأقوالًا وأحوالًا، ومن أحب في مثل هذا فكأنما أحب الله ورسوله، ومن عاداه فكأنما عادى الله ورسوله، ومن أحب في الله وأبغض في الله فقد استكمل الإيمان وبلغ أعلا درجة الإحسان، وما أحسن ما قال بعضهم:

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب منْ سكن الديارا

وقال بعضهم: وقع جدب في أحد البلدان فاستسقوا ولم يسقوا، فخرج إنسان وقال: يا رب بحق ما في هذا الرأس اسقنا. فسُقُوا وارتوَوْا، فقال له بعضهم: وما في هذا الرأس؟ قال: عينان رأت أبا يزيد. فقال له ذلك القائل: أنا جارُ أبي يزيد، فقال: أنت أحق مني بالإجابة. فانظر يا أخي إلى عينٍ رأت الشيخ الكامل كان لها هذا المقام عند الله فكيف بقلب حشي بحبه، وجوارح وحواس لم تزل ممتلئة بقربه، فكيف لا تكون أيها الطالب محبًا لهياكل تزينت بهذه القلوب، ومبغضًا لأبدان حرمت النظر إلى هذه

المحاسن وبعدتها الذنوب.

قوله: (واعلم يقينًا بأن الله ناصره...). البيت يعني أن نصر الشيخ ليس موقوفًا على نصرك أيها الطالب، إن نصرته فالمنفعة راجعة إليك وإن لم تنصره فالله ناصره، إما على يدك أيها الطالب أو على يد غيرك. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. [الطلاق: ٣]. أي كافيه وناصره، وحقيقة التوكل كما قال إبراهيم الخواص ﷺ: أن تكتفي بعلم الله فكيف عن تعلق القلب بما سواه، وصاحب هذا المقام لا يلتفت في نصرته إلى زيد ولا إلى عمرو ولا إلى أحد من الخلق ولا إلى نفسه وحوله وقوته لأن الكل سواء، وهو لا يعرج على غير المولى وما أحسن ما قال بعضهم في هذا المعنى:

أنـــا لا أعـــرف إلا أنـــتمُ كـــل شـــخص لعزيـــز ينتمـــي
فـــاجبروني بعطـــاء مـــنكمُ وعزيـــزي لـــيس إلا أنـــتمُ

واسمع ما قال الله تعالى في كتابه العزيز تحقيقًا لهذا المعنى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤]. وكذلك المشايخ الكمّل إذا قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فينقلبون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، ينصرهم الله على يدك أيها الطالب أو على يد غيرك، والسعيد من أسعده بخدمتهم ووفّقه لنصرهم

ومحبتهم وصدق القائل:

وإذا ســـخّر الإلـــه أناســـاً لســـعيد فـــإنهم ســـعداءُ

وأنزل الشيخ في أعلى منازله واجعله قبلة تعظيم وتنزيهِ
ولست تفعل هذا إن ظننت به نقصًا ولا خللًا فيما يعانيه

وأنزل الشيخ أيها الطالب الصادق في أعلى المنازل واخضع بين يديه وتذلل في البكور والآصال، واجعله قبلتك التي تعظمها وتنزهها حتى تصل به إلى القبلة الحقيقية، وافن عن أوصافك وانخلع عن كمالاتك حتى تنال بمصاحبته الانخلاع عن أوصاف البشرية، وتستنشق شمّة من روائح القرب من الحضرة الأحدية، وينطمس عن قلبك الأغيار، وتستشرف روحك إلى معادن الأسرار، ويتجلى لك سرك وتصل إلى مقام المشاهدة والمكالمة، مقام لا يسع وصفه عبارة، ولا يحيط بكنه حاله إشارة، ولست تنال هذا المقام أيها الطالب إلا من شيخك، ولا تتحقق بهذا الانكسار وأنت تظن به نقصًا أو خللًا، فحسن الاعتقاد أيها الطالب لتنال ببركة صحبته انتهاء المطالب.

واترك مرادك واستسلم له أبدًا وكن كَمَيْتٍ مخلّىً في أياديه

واترك مرادك لمراده وسلم له الأمر دائمًا وإن رأيته أخطأ فخطأ الشيخ خير من صوابك، وانسب النقص لنفسك وكن مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء، وهيهات يتم هذا التسليم إلا لفرد بعد فرد من المريدين ولهذا لا تجد المشايخ تظهر إلا في القليل منهم، فإن المريض ما لم يوافق الطبيب في

جميع ما يأمره لا تتم له الصحة، والمريد مريض والشيخ طبيب فإن أطاعه في جميع أوامره صح من مرضه.

أعدم وجودك لا تشهد له أثرًا ودعه يهدمه طورًا ويَبنيه

تخلَّ أيها الطالب عن كل شيء تشهده منك وتخلق بكمال فقرك وافن عن وجودك ولا تشهد لك أثرًا، وسلم كل ذلك لشيخك ودعه يتصرف فيك كيف يشاء يهدم وجودك طورًا ويبنيه طورًا آخر.

متى رأيتَك شيئًا كنت محتجبًا برؤية الشيء عمّا أنت ناويه

أي متى رأيتَ نفسك شيئًا وأثبتَّ لك حالًا أو مقامًا كنت محتجبًا بتلك الرؤية عما أنت ناويه، أي قاصده، أي كنت محتجبًا بتلك الرؤية عن مولاك، قيل لذي النون: ما أشد الحجاب وأخفاه؟ فقال: رؤية النفس وتدبيرها. فرؤيتك نفسك ورجوعك إليها واستبدادك بحالك، حجاب غليظ لك عن مولاك وقاطع لمدد الشيخ عنك، فلا تتحلّى دائمًا بين يدي الشيخ إلا بخلعة الافتقار ولا تتمثل بين يديه إلا برداء الذلة والانكسار، فتقابل حينئذ بخلع القبول وتهبّ عليك نفحات الوصول، وتذوق من الأحوال أعلاها ويشرق عليك من الأنوار أبهاها.

جدّ في سيرها فلست تلام هذه طيبة وهذا المقام

ولا ترى أبدًا عنه غنىً فمتى رأيت عنه غنىً تخشي تناسيه

أي لا ترَ نفسك غنية عن المشايخ أبدًا وإن بلغت درجة الوصول، فإنك متى رأيت نفسك غنية عنه يخشى أن ينساك من مدده، فالمريد كيفما كان لا يستغني عن المدد من شيخه لأن ساقيته منبعها من بحره فالجداول لا تستغني عن أصلها. كان شخص يصحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي ~ فانقطع عنه، فقال

الشيخ: لم انقطعت عني؟ قال: استغنيت بك عنك. فقال الشيخ: ما استغنى أحد بأحد مثل ما استغنى الصديق ~ بالنبي ‘، ومع ذلك ما ترك صحبته يومًا.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ كثيرًا ما يقول: قال الشيخ أبو الحسن.. فينسب غالب المقالات إلى شيخه، فسئل عن ذلك فقال: لو شئت قلت: قال الله. حتى ينقطع النفَس لفعلت، ولو شئت قلت: قال رسول الله ‘. حتى ينقطع النفَس لفعلت، ولو شئت قلت: أقول كذا. حتى ينقطع النفس لفعلت، ولكن أترك ذلك كله وأنسب القول للشيخ رعاية للأدب معه.

فانظر يا أخي إلى كمال هذه المتابعة ورعاية مثل هذا الأدب مع شيخه لم ينفصل عنه حيًا ولا ميتًا ولم ير الاستمداد لنفسه في المقام، وهو القائل ~: لو حجب عني رسول الله ‘ لحظة ما عددت نفسي من المسلمين. فجزاه الله عن ذلك الحب أعظم الجزاء.

إن اعتقادك إن لم تأت غايته ... فيه فيوشك أن تخفى مباديه
وغاية الأمر فيه أن تراه على ... نهج الكمال وأن الله هاديه
ومن أمارة هذا أن تؤوّل ما ... أُشكِل عليك إظهارًا لخافيه
والمرء إن يعتقد شيئًا وليس كما ... يظنّه لم يخب فالله يعطيه

حسن اعتقادك أيها الطالب في الشيخ وأنت بالغاية فيه فإنك إن قصرت في ذلك يوشك أن تخفى وتذهب مبادئ اعتقادك وتضمحل، وغاية الأمر في اعتقادك أن تراه على طريق الكمال وأن الله هاديه، ومن علامة هذا الاعتقاد أن تؤول ما أشكل عليك من أمره وتعلم أن للشيخ أنظارًا دقيقة لا تصل معرفتك إليها، وأنت إذا اعتقدت ذلك في الشيخ وكان الأمر على خلاف ظنك لم تخب في ذلك، فالله يعطيك بحسب ظنك، وهذا تنزّل

معك أيها الطالب وجذب لك إلى تحسين العقيدة بالشيخ بكل وجه، فحسّن العقيدة واترك الوساوس وأقبل على خدمته بالانكسار واخش من الدسائس.

وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل فـي الاعتقـاد ولا مـن يواليـه
إلا إذا ســبقت للعبــد ســابقة يعود من بعد هذا من مواليه

أي وليس ينفعك أيها الطالب ملاقاة القطب والاجتماع به إذا لم تنكسر له وتخضع بين يديه وتتذلل، فلذلك قيل: من أشد الحرمان أن تجتمع بالولي ولا ترزق بالقبول عنده، وما ذاك إلا لسوء أدبك في الظاهر والباطن، فإنهم يدخلون في باطن الإنسان ويعلمون ما تحويه سرائره من غير أن يشعر بذلك، فلهذا يجب على الحاضر بين يدي أولياء الله أن يحفظ سره عما لا يعني، فكيف بالمعاصي؟ فإذا وقعت خطرة من خطرات السوء بين يدي الولي فينبغي للطالب أن يتلافى ذلك ويغسل تلك الخطرة بالاستغفار والرجوع إلى مولاه بالذلة والانكسار، وهذا هو الذي أشار إليه الناظم بقوله:

إلا إذا ســبقت للعبــد ســابقة يعود من بعد هذا من مواليه

إذا سبقت العناية الإلهية للطالب تلافى ذلك الخاطر وعالج سوء الأدب الواقع منه بالاستغفار والعودة إلى موالاة ذلك الولي وحسن الأدب معه، فإن سيماهم السماحة وهم متخلقون بأخلاق مولاهم يحبون التائب ويغفرون الزلة ويقيلون العثرة، والحاصل أن النفع المترتب على الاجتماع بالأولياء إنما يحصل بلزوم الأدب معهم وحسن الاعتقاد فيهم.

زار بعض الملوك قبر أبي يزيد ~ فقال: ها هنا أحد ممن اجتمع به وسمع كلامه؟ فأشاروا إلى شخص من هناك فقالوا: هذا ممن اجتمع به وسمع كلامه، فقال له الملك: ماذا سمعت من

كلامه؟ فقال: سمعته يقول: من رآني فلا تحرقه النار، فاستعظم الملك هذا المعنى وقال: محمد رسول الله ‘ رآه أبو لهب والنار تحرقه، فكيف يقول أبو يزيد: من رآني لا تحرقه النار؟ فقال الشيخ: إن أبا لهب ما رأى محمداً رسول الله وإنما رأى يتيم أبي طالب.

وقد قال القشيري نفعنا الله به: قعودك مع كل طائفة من الصوفية أسلم.

وقال الديريني في روضه: يعني إن خالطهم وادعى أنه سلك مسلكهم ومراده التزين للناس بأحوالهم، مع عزمه على مخالفتهم فإنه هالك فذلك تحرقه النار.

ففهم المرادَ الملكُ وأذعن، يعني: أبو لهب لم يرَ النبي ‘ بوصف النبوة ولا عظّمه في قلبه بالحالة اللائقة بوصفه ‘، وإنما رآه بعين الحقارة وكونه يتيمًا ربّاه أبو طالب فلذلك أحرقته النار ولو رآه بوصف النبوة وأذعن له بها وأسلم لكانت تلك الرؤية رافعة له لمقام الصحبة، وحصل له المقام الذي لا يصل أحد من الأولياء إليه ولم تحرقه النار، وكذلك الولي لا ينال أحد بركة صحبته حتى يراه بعين الولاية ويعظمه بمقتضى مقامها فتشرق حينئذٍ أنوارها، فعض يا أخي بالنواجذ على حفظ الأدب بين يدي المشايخ واحفظ قلبك معهم وقالبك يكن لك في أذواقهم القدم الراسخ.

ليس الشأن أن ترزق الطلب، وإنما الشأن أن ترزق حسن الأدب، لا تطالب ربك بتأخير مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك.

ونظـرة منــه إن صـحّت إليــه سـبيل ودٍّ بـإذن الله تغنيــه علـــــــــــــــــــى

أي نظرة من الولي إن صحت للطالب على سبيل المحبة أغنته بإذن الله ورفعته عن عالم الطبيعة إلى عالم القلب، وأخرجته من ظلمة عالم الملك إلى نورانية عالم الملكوت.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﵁: إن السلحفاة تبيض وتجلس في البعيد عن بيضها وتربيه بالنظر إليه.

إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر إليهم فكيف لا يربي الشيخ أولاده بالنظر وشتان بين النظرين.

قال الشيخ السهروردي في المعارف: كنت أنا وعمي في مسجد الخيف وكان كثير المشي والتردد فيه، فقلت له: ماذا تريد بكثرة هذا التردد؟ قال: أريد جماعة النظر منهم على الشخص كالإكسير إذا حل على النحاس صيّره ذهبًا.

ويُروى أن الشيخ نجم الدين الكبري كان في مجلس السماع فجاء بقال يتفرج، فنظر إليه الشيخ في ذلك الوقت نظرة وقال له: من أين؟ فوصف له حاله فقال له: اذهب وأرشد الناس فقد أجزتك فأوصله إلى الله بتلك النظرة وأعطاه مقام الإرشاد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﵁ في وصف أبي العباس المرسي: أبو العباس الرجل الكامل يأتي إليه الأعرابي وهو يبول على ساقيه فما يأتي آخر النهار إلا وقد أوصله إلى الله، وأمثال هذه الحكاية كثيرة واردة عن أولياء الله، والإيمان يسع ذلك كله وفضل الله أوسع من ذلك إذ ليس مانقل عنهم إلا من فضله تعالى، فشد المئزر يا أخي في طلبهم تظفر بالكنز الذي لا ينفد والفضل الذي ليس لغايته حد.

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتدي

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الصَّلاةِ فَلَمَّا قَضَى صَلاتَهُ، قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ قِيَامِ

السَّاعَةِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاةٍ وَلا صَوْمٍ، إِلا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. فَمَا رَأَيْتُ فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ الإِسْلامِ فَرَحَهُمْ بِهَذَا. [البخاري ومسلم]. فما فرح الصحابة بشيء مثل فرحهم بذلك.

وكذلك أنت يا أخي إذا أحببت الأولياء كنت معهم وإن لم تكن في مقامهم، ولن تكون معهم حتى تذعن لهم بظاهرك وباطنك وتنكسر لهم في سرك وعلانيتك، فمن ظفر بذلك فقد ظفر بالغنيمة الباردة وتجدد له في كل حين من إشراق بواطنهم فائدة وأيّ فائدة.

والناس عبدان مجذوب وسالك دعي إليه بتعليم وتنبيه مـــــــــــــــــــــــا

لما فرغ ـ والله تعالى أعلم ـ من الكلام عن الشيخ والمريد وما يتعلق بهما من الأدب، شرع يتكلم في الحال الذي ينتهي إليه السالك وما يؤول إليه من أمره، فقال: الناس عبدان (أي قسمان):

الأول مجذوب سالك، والثاني سالك مجذوب، وهو الذي عبر عنه بقوله: (سالك ما دعي إليه بتعليم وتنبيه) أي سالك الطريق الذي دعي إليها بتعليمٍ من الشيخ في السلوك والذكر وتنبيه منه على دقائق يحتاج إليها السالك في سلوكه، والحاصل أن المجذوب السالك هو الذي تقدمت له الجذبة بالعناية الإلٰهية ثم سلك هو الطريقة وعرف كيفية الوصول إلى مولاه، والسالك المجذوب وهو الذي سلك الطريق أوّلًا بالآداب المعروفة عند

المشايخ ثم حصلت له الجذبة، وأشرقت عليه الأنوار وتحقق بالمعارف وتبدت له الأسرار.

والجـذب أخـذة عبـد بغتـة يبـدي عنايـة لـيس ينويـه
هو المراد ومخطوب العناية لا يحـس كلفـة تكليـف تلاقيـه

الجذب: أخذةٌ لقلب العبد من الأكوان بالعناية الإلهية وإدخاله في مقام الإحسان، حتى يرى ما ليس يخطر له ببال ولم ينوه في البكور والآصال، كما ورد: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». [صحيح البخاري وصحيح مسلم]. ولم يقيد ذلك بآخرة ولا دنيا، فالعارف جنته حاضرة، وأما لغيره آجلة، فهو له نقد عاجل وهو المجذوب، هو المراد، ومخطوب العناية لا يحس كلفة التكاليف الشرعية؛ لأنها تصير له ذوقًا وحالًا، ولهذا قال: يقال يصل العارف إلى مقام يسقط عنه التكليف، لا بالمعنى الذي يفهمه أهل الإباحة والزندقة بل بمعنى أنه لا يبقى عليه كلفة في عملها، لأن العبادات تصير في حقه كالعادات، لا بل كالشهوات، كما يصير الحضور لأهل الجنة سجيةً وخلقًا فكذلك الأعمال عند العارفين، ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ بل قام حتى تورّمت قدماه، فقيل له: كيف تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا». فأفاد ﷺ أن هذا من شكر النعمة وتمام الخدمة وذلك موجب للمزيد. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. [إبراهيم: ٧].

وهذا سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه لم يترك وردًا في حال نزعه، فقيل له في

ذلك فقال: ومن أولى مني بذلك وهذه صحائفي تطوى فلم يترك الخدمة ﷺ في مثل تلك الحالة فكيف بسواها. قيل له: إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف بها، قال: وصلوا ولكن وصلوا إلى سقر. وقال في كلام آخر له: إن هذا كلام من يقول بالإباحة والسرقة والزنى عندنا أهون حالًا ممن يقول بهذه المقالة. لقد صدق ﷺ في قوله هذا، فإن الزاني أو السارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، أما القائل بسقوط الفرائض المعتقد لذلك فقد انسل من الدين كانسلال الشعرة من العجين، فعض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخي ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب وصار يتكلم بالزندقة والإلحاد وأسقط الأعمال على حسب فهمه وهواه. وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. [آل عمران: ٣١].

فعليك بمتابعته ، ومتابعة السلف الصالح في الأفعال والأقوال والأحوال نحو مقامهم تكن معهم فالمرء مع من أحب.

طورًا يُرد عليه الحس تكملة له فيقصد ما قد كان ناويه

أي المجذوب المأخوذ: تارةً يكون غائبًا عن حسه فاقد الشعور وتارةً يرد عليه الحس تكملة له فيأتي بما يريد من أنواع الخدمة والعبادات، فهو في أخذه محفوظ وفي ورده قائم بالخدمة ملحوظ.

كان الشبلي ﷺ مستغرقًا في جذباته فإذا جاء وقت الصلاة قام إليها (وهذه عناية من الله بعبده)، حيث قال: ولقد كنت في حال جذبتي يعتريني

قبيل الصلاة انفقاد في سائر جوارحي كأني مربوط ومكفوت لا أقدر أحرك يدي ولا ألتفت إلى جانبي وتقام الصلاة وأنا بهذه الحال، فأقول في قلبي: كيف تقام الصلاة وأنت جالس بين يدي الناس فعندما تتم الإقامة تنفك عني هذه الحال ويفارقني حتى كأني نشطت من عقال وكنت على هذه الحال أيامًا حتى انقضت. فإذا كان أهل الطريق محفوظين من حال الجذبة عن تضييع الفرائض فكيف لا يحفظون في حال التمكين والبقاء؟ ولهذا قال أبو سعيد الخرّاز: كل باطن خلافه الظاهر فهو باطل. وقالوا: علامة صحة الأحوال استقامة الأفعال.

قال ‘ لمن قال أوصني؟ قال: >قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ<. [أحمد وفي السنن الكبرى للنسائي].

قال في الحكم: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا أقامك.

تراه يعبد لا يلوي على شغل سوى العبادة يستحلي معانيه

أي ترى المجذوب المذكور عند رده إلى الحس لا يشتغل بشيء سوى العبادة ويستحلي فناه فيها واستغراقه في معانيها، إذًا صار هواه طاعة مولاه ومنيته خدمته.

وكانت رابعة العدوية كثيرًا ما تنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كنت تصدق في المقال أطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقد يغيب عن الإحساس مُختَطَفًا وذو العناية حفظ الحق يحميه

أي وقد يغيب المجذوب عن إحساسه ويفقد شعوره ومثل هذا يسقط عنه التكليف شرعًا، إذ التكليف منوط بالعقل والتمييز، والمجذوب في مثل هذه الحالة غائب عن عقله وتمييزه، ومع ذلك إن أرباب العنايات يحفظهم الحق في مثل هذا الوقت ويحميهم عن تضييع وظائف الخدمة، كما نقل عن الشبلي آنفًا. حصل لسهل ﷺ زمانًا في آخر عمره فكان إذا حضرت الصلاة قام إليها كأنما نشط من عقال وهذا شأن من حفته العناية، ومنهم من تفوته الصلاة في حال استغراقه فيقضيها إذا أفاق، وكل على حسب ما قسم له، ولم يخرج الكل عن القانون الشرعي ولم يصدر منهم خلاف الأدب المرعي، نفعنا الله ببركاتهم وأذاقنا من رائق شراب طويّاتهم.

ترى الحقائق تبدو من في نسق مع الكشوف لأن الله يلقيه

ترى الحقائق تبدو من المجذوب منمقةً يتبع بعضها بعضًا بأحسن نظام وأتم تعبير، مع ما يكشف الله له من الأحوال والوقائع السابقة واللاحقة، ورؤية المشايخ السابقين والمعاصرين ورؤية النبي ‘ ورؤية الأولياء وعروجه بروحه إلى سدرة المنتهى وانكشاف الجنة له والنار ورؤية أمور عظيمة لا يفي التعبير ببيانها، فإن أمور القوم لا تتضح ولا تعلم إلا بالعيان والمشاهدة لا بالإخبار، وإنما المقصود من البيان التشويق وتحريض الطالبين على الطلب.

قال في الحكم: الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإذعان وفكرة

شهود وعيان. فالأولى لأرباب الاعتبار والثانية لأرباب الشهود والاستبصار.

ولقد حصل لي بحمد الله من ذلك كله النصيب الوافر وعاينت في أثناء الخدمة بكثير مما سمعت منه عن أحوال القوم، وجمعت بين الخبر والمشاهدة كأني كنت مصدقًا بكل ما أسمعه من أحوال القوم ولا أتطلبه وإنما مقصودي محض العبودية، وكنت أسمع المشايخ في كتبهم يقولون: لا بد من الشيخ في الطريق، وهو وإن كان أعز من الكبريت الأحمر لكن من صدق في الطلب ظفّره الله الاجتماع به. فكنت عاضًّا بالنواجذ على هذه الوصية ملازمًا للآداب المذكورة عن المشايخ في آناء الليل وأطراف النهار، واجدًا حلاوةً لذلك في قلبي وصفاءً إلا أن ذلك الفتح العظيم لا أجده ولا أطلبه فأسعدني الله بعد ذلك بوصول شيخي الشيخ العارف السالك تاج الدين إلى مكة، فوصلت إليه وأخذت عنه الطريق وتلقنت منه الذكر فلم يأت عليّ اليوم السابع إلا وقد حصلت لي الجذبة، ورأيت شيخ الطريقة حضرة الخواجة بهاء الدين نقشبند جهارًا وأفادني من ذلك المجلس بفوائد وأوصاني بوصايا، ثم جرت أمور بعد ذلك وأحوال لا يمكن التعبير عنها وكل ذلك ببركة الانكسار والذلة والحضور بين يدي المشايخ وتصحيح المقصد، فلله الحمد على ذلك، ولم أذكر ذلك إلا مرغّبًا للطالبين في الطلب وتحريضًا للزوم الأدب بين يدي المشايخ والانكسار لهم، فإنه الترياق المجرب في الطريق. ولا يستغرب جميع ما يقع من أهل الجذبات في جذبتهم فإنهم قد تحققوا بمقام الفناء فليس لهم فعل ولا وصف ولا وجود. فإنما الفعل فعله، والوجود وجوده، وإلى هذا المعنى أشار الناظم بقوله: (لأن الله يلقيه). فافهم ذلك يا أخي وحصّل مقام الإيمان لتتم بذلك درجة المحبة ومقام الإحسان.

وذو السلوك تراه في لذاته مجاهد النفس ذا رعي لباقيه
يمشي على نهج أهل الصدق شروطهم خائفًا فيما يُرَجِّيه
ملتزمًا

أي السالك المجذوب: وهو القسم الثاني من أهل الطريق تراه في إرادته مجاهدًا لنفسه مراعيًا لبقية أحواله متأدبًا بآدابه باذلًا جهده في الوصول إلى منازل أحبابه، يمشي على طريق أهل الصدق ملتزمًا شروطهم، جامعًا للخوف والرجاء فيخاف في رجائه ويرجو في خوفه، كما هو شأن أهل الكمال في سلوكهم. كما قال صاحب الحكم في مناجاته: إلهي إن رجائي لا ينقطع وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

ومن كان هذا حاله كان مآله الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾. [العنكبوت: ٦٩].

والهدايةُ: هدايةُ الحقِّ عبيدَه إلى حضرته، وفتحُ أنوار قلوبهم حتى تشرق عليهم أنوار عظمته، ومن ذلك تنشأ الجذبة المعروفة عند القوم، فتضطرب الجوارح ويبوح اللسان بكل سانح، يظنّه المحجوب مجنونًا وما به جنون ويعذره الناقد البصير ويعرف أنه بمحبة مولاه مشجون. وما أحسن ما قال بعضهم:

لي في محبتكم شهود أربع وشهود كل قضية اثنان
خفقان قلبي وارتعاش مفاصلي ونحول جسمي وانعقاد لساني

وقال ابن علوان ~: أحبابنا يخبرون أني بكم لمفتون، باكي العيون محزون مجنون غير مجنون، وكيف لا يكون كذلك وقد سطعت في قلب المجذوب أنوار جمال الربوبية، وأشرقت في

روحه شموس معارف حضرة الأحدية، فيا لها حالة ما ألذها وأحلاها، ويا لها منزلة ما أرفعها وأعلاها، من ذاقها نسي الأكوان ورماها، ومن استنشقها جد في طلبها وحام حول حماها!

كم من مريد قضى ما نال بغيته حق القضاء عليه في تقاضيه

أي كم من مريد قضى في سلوكه وجاهد في سيره ولم ينل بغيته ووقع القضاء عليه بالبعد، ما كل من سلك الحمى سمع النداء من سِرِّه أهلًا بذلك الزائر.

خليلي قطّاع الفيافي إلى الحمى كثير وأما الواصلون قليل

وهذه إشارةٌ من الناظم إلى تتمة أقسام أهل الطريق، والحاصل أنهم أربعة أقسام:

فالأول: المجذوب السالك.

والثاني: السالك المجذوب.

وقد تقدّما، وهذان يصلحان للتكمل والإرشاد.

والثالث: السالك غير المجذوب، المشارُ هنا في قول الناظم: (كم من مريد...).

والرابع: المجذوب غير السالك.

وهذان لا يتأتى منهم التكميل والإرشاد، وكلٌّ على بينة من ربه راضيًا بما قسم له من حبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾. [البقرة: ٦٠].

وكم من مريد دنا من بعد عزمته يهوِي به الحظُّ في أهوى

وما المريد الذي صحّت إرادته مهاويه
إلا مراد له جذب يوافيه

وكم من مريد ضعيف من بعد جده نزّله حظه في أسفل السافلين لفتوره عن مجاهداته وإعراضه عن باب مولاه.

كل له نحو العلا حركات لكن قليل في الرجال ثبات

أي والمريد الذي صحت إرادته بتصحيح مقصده وبإقباله على مولاه وإعراضه عن كل ما سواه، هو الذي أريد منه أن توافيه الجذبة وتستغرق ظاهره وباطنه المحبة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. قال في الحكم: ما توقف مطلب أنت طالبه بربك وما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. من علامة النجاح في النهايات الرجوع إليه في البدايات، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته. {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ}. [الفاتحة: ٥ – ٦].

والجذب إن كان من بعد السلوك له فضل على الجذب مما السعي تاليه
فالجذب هذا الذي التفضيل فيه على الجذب الذي ظهرت حسًّا بواديه
وفي الحقيقة لولا الجذب ما سُلكت طريق حق ولا رِيئت مرائيه
لولا العناية والتخصيص قد سبقا في دعوة العبد ما قامت دعاويه

لما فرغ الناظم رضي الله عنه من بيان أقسام أهل الطريق شرع يبين الأفضل من ذلك. فقال: الجذب الذي يجيء من السلوك أفضل من الذي يتلوه السعي أي من الجذب المقدم على السلوك، وهذا الجذب المفضل هو الجذب الذي ظهرت في الحسّ ظواهره وأشرقت على جميع السالك أنواره وأزهرت أذاخره، وفي الحقيقة لولا الجذب من الحق لعبده ما سلك طريق الحق ولا

رُئيت مظاهره، ولولا العناية والتخصيص قد سبقا في دعوة العبد ما تمت له مقاصده، عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حيث واجهتك عنايته وقابلتك رعايته، لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وأعظم النوال.

إليكم بكم سادتي جئتكم ... فلا تهملوا من أساء الأدب
وقولوا عفا الله عما مضى ... فليس التفضل منكم عجب

إن المريد مرادٌ والمحبُّ هو الـ ... ـمحبوب فاستمل هذا من أماليه
إن كان يرضاك عبدًا أنت تعبُدُه ... وإن دعاك مع التمكين تأتيه
ويفتح الباب إكرامًا على عجل ... ويرفع الحُجْب كشفًا عن تدانيه
وثم تعرف ما قد كنت تجهله ... مما عن الحصر قد جلّت معانيه
وترتوي من شراب الأنس ... يا سعد من مات مملوءًا
صافية ... بصافيه

أي إن المريد للطريق مراد من قبل مولاه، ولولا أن مولاه أراده ما أقبل على الطريق، ولولا العناية السابقة ما قلّ عنه التعويق، والمحب للطاعة هو المحبوب إذ لولا محبته وجذبته ما أشرقت عليك أنواره ولا ظهرت منك خدمته، فأنت عبده وعابده إن كان يرضاك وأنت المتمكن المرشد إن كان لذلك دعاك، ويفتح لك الباب حينئذ إكرامًا على عجل ويرفع عنك الحجب ويوصلك مع من وصل، وتعرف ثم ما كنت تجهله وتدرك من الأسرار ما يعجز عن حصره كل ما يعقله وترتوي حينئذ من شراب الأنس صافيه، فيا سعد من بات مملوءًا بتلك النعمة الوافية.

وصلِّ يا ربِّ ما غنّت حمامةٌ على النبي المصطفى خير من سكن تهامة

وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأحبابه.

وهذا آخر ما تيسر على الطالبين لفظه ومفهومه، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

(تم شرح قصيدة ابن بنت أبي الميلق)

** ** **

قصيدة شيخ الشيوخ أبي مدين شعيب المغربي

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهمُ وتأدّب في مجالسهم ... وخلِّ حظَّك مهما قدموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم ... واعلم بأنَّ الرِّضا يختص من حضرا
ولازم الصمت إلاّ إن سُئلت فقل لا ... علم عندي وكن بالجهل مستترا
ولا ترى العيب إلا فيك معتقدًا ... عيبًا بدا بيّنًا لكنه استترا
وحطّ رأسك واستغفر بلا سببٍ ... وقم على قدم الإنصاف معتذرا
وإن بدا منك عيبٌ فاعترف وأقم ... وجه اعتذارك عمَّا منك جرى
وقل عُبيدكمُ أولى بصفحكم ... فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا
هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم ... فلا تخف دركًا منهم ولا ضررا
وبالتفتي على الإخوان جد أبدًا ... حسًّا ومعنى وغضَّ الطرف إن عثرا
وراقب الشّيخ في أحواله فعسى ... يرى عليك من استحسانه أثرا
وقدّم الجدّ وانهض عند خدمته ... عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا
ففي رضاه رضا الباري وطاعته ... من لي وأنّى لمثلي أن يزاحمهم ... يرضى عليك فكن من تركها حذرا
واعلم بأن طريق القوم دارسة ... أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... وحال من يدّعيها اليوم كيف ترى
متى أراهم وأنّى لي برؤيتهم ... قومٌ كرام السجايا حيثما جلسوا ... أو تسمع الأذن منّي عنهمُ خبرا
من لي وأنّى لمثلي أن يزاحمهم ... على موارد لم ألف بها كدرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرفًا ... هم أهل ودّي وأحبابي الذين هم ... بمهجتي وخصوصًا منهم نفرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعًا ... يبقى المكان على آثارهم عطرا
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... حسن التألُّف منهم راقني نظرا

مّمـن يجـرُّ ذيـول العـزِّ مفتخـرا
وذنبنـــا فيـــه مغفـــورًا ومغتفـــرا
محمدٍ خير من أوفى ومن نـذرا

** ** **

تخميس

للشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي الطائي الحاتمي الأندلسيِّ المرسيِّ الدمشقيِّ على قصيدة شيخ الشيوخ أبي مدين شعيب المغربي:

يا طالبًا من لذاذات الدنا وطرا إذا أردت جميع الخير فيك يرى
المستشار أمين فاسمع الخبرا ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا

قوم رضوا بيسيرٍ من ملابسهم والقوت، لا تخطر الدّنيا بهاجسهم
صدورهم خالياتٌ من وساوسهم فاصحبهمُ وتأدّب في مجالسهم
وخلّ حظّك مهما قدموك ورا

اسلك طريقهمُ إن كنت تابعهم واترك دعاويك واحذر أن تراجعهم
فيما يريدونه واقصد منافعهم واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم
واعلم بأنّ الرضا يختص من حضرا

كن راضيًا بهمُ تسمُ بهم وتصل إن أثبتوك أقم وإن محوك فزل
وإن أجاعوك جع وإن أطعموك فكل ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل
لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

ولاتكن لعيوب الناس منتقدًا وإن يكن ظاهرًا بين الوجود بدا
وانظر بعين كمالٍ لا تعب أحدًا ولا ترى العيب إلا فيك معتقدا
عيبًا بدا بيّنًا لكنه استترا

تنـل بـذلك مـا ترجـوه مـن أدب والـنفس ذلّـل لهـم ذلًا بـلا ريـب
بـل كـلّ ذلـك نـاب عـن أدب وحط رأسك واستغفر بلا سبب

وقـم علـى قـدم الإنصـاف معتـذرا

إن شـئت مـنهم بريقًـا للطريـق تشـم عـن كـلِّ مـا يكرهـوه مـن فعالك ذم
والـنفس منـك على حسـن الفعـال أدم وإن بـدا منـك عيـبٌ فـاعترف وأقـم

وجه اعتذارك عمّا فيك منـك جـرى

لهـم تعلّـق وقـل داووا بصـلحكمُ بمـرهم العفـو مـنكم داء جـرحكم
أنا المسيء هبوا لي محض نصحكمُ وقـل عبيـدكمُ أولـى بصـفحكمُ

فسـامحوا وخـذوا بـالرفق يـا فقـرا

لا تخـش مـنهم إذا أذنبـت همّـتهم أسنى وأعظم أن ترديـك عشـرتهم
ليسـوا جبـابرة تؤذيـك سـطوتهم هم بالتفضل أولى وهـو شـيمتهم

فـلا تخـف دركًـا مـنهم ولا ضـررا

إذا أردت بهـم تسـلك طريـق هـدًى كن في الذي يطلبوك منـك مجتهـدًا
في نـور يومك واحـذر أن تقـول غـدًا وبـالتّفتي علـى الإخـوان جـد أبـدًا

حسًا ومعنى وغضّ الطـرف إن عثـرا

أصـدُقْهُمُ الحـق لا تسـتعمل الدّنسـا لأنهـم أهـل صـدقٍ سـادةٌ رؤسـا
واسـمح لكـل امـرئ مـنهم إليـك أسـا وراقـب الشـيخ فـي أحوالـه فعسـى

يـرى عليـك مـن استحسـانه أثـرا

واســأله دعوتــه تحــظَ بدعوتــه تنــل بــذلك مــا ترجــو ببركتــه
وحسِّــن الظـن واعـرف حـقّ حرمتـه وقدّم الجـد وانهـض عنـد خدمتـه

عساه يرضى وحاذر أن تكن ضـجرا

واحفــظ وصــيته زد مــن رعايتــه ولبّــه إن دعــا فــورًا لســاعته
وغـضّ صـوتك بـالنجوى لطاعتـه ففي رضـاه رضـا البـاري وطاعتـه

يرضى عليك فكن من تركهـا حـذرا

والـزم بمـن نفسـه نفـسٌ مسايسـةٌ فـي ذا الزمـان فـإن الـنفس آيسـة
مـنهم وحـرفتهم فـي النـاس باخسـة واعلـم بـأن طريـق القـوم دارسـة

وحال من يدعيها اليـوم كيـف تـرى

يحـق لـي أن نـأوا عنـي لألفـتهم ألازم الحـزن ممّـا بـي لفـرقتهم
على انقطاعيَ عـنهم بعـد صـحبتهم متـى أراهـم وأنّـى لـي بـرؤيتهم

أو تسـمع الأذن منـي عـنهم خبـرا

تخلّفــي مــانعي مــن أن ألائمهــم مـنهم أتيـت فلمنـي لسـت لائمهـم
يا رب هب لي صـلاحًا كي أنـادمهم ومـن لـي وأنـى لمثلـي أن يـزاحمهم

علـى مـوارد لـم آلـف بهـا كـدرا

جلت عن الوصف أن تحصى مـآثرهم علـى البـواطن قـد دلـت ظـواهرهم
بطاعــة الله فــي الــدنيا مفــاخرهم أحــبهم وأداريهــم وأوثــرهم

بمهجتــي وخصوصًــا مــنهم نفــرا

قوم على الخلق بالطاعات قد رؤسوا مـــنهم جليســـهم الآداب يقتـــبس
ومــن تخلّــف عــنهم حظــه الــتعس قــومٌ كــرام الســجايا حيثمــا جلســوا

يبقــى المكــان علــى آثــارهم عطــرا

فهــم بهــم لا تفــارقهم وزد شــغفًا وإن تخلّفت عـنهم فانتحـب أسـفًا
عصــابةٌ بهــم يُكســى الفتــى شــرفًا يهدي التصوف من أخلاقهـم طرفًا

حســن التــألّف مــنهم راقنــي نظــرا

جررت ذيل افتخاري في الهـوى بهـمُ لمّا رضوني عبيـدًا في الهـوى لهـمُ
وحقهــم فــي هــواهم لســت أنســهم هم أهـل ودّي وأحبـابي الـذين هـم

ممــن يجــرّ ذيــول العــز مفتخــرا

قطعت في النظم قلبي في الهـوى قطعًا وقـد توسّـلت للمـولى بهـم طمعًـا
أن يغفــر الله لــي والمســلمين معًــا لا زال شـملي بهـم فـي الله مجتمعًـا

وذنبنــا فيــه مغفــورًا ومغتفــرا

يـا كـل مـن ضـمّه النـادي بمجلسـنا ادع الإلـه بهـم يمحـو الـذنوب لنـا
وادع لمن خمس الأصـل الـذي حسـنا ثـم الصـلاة علـى المختـار سـيدنا

محمـد خيـر مـن أوفـى ومـن نـذرا

** ** **

شرح الشيخ ابن علان على قصيدة أبي مدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما بعد: فقد قال ﷺ: «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». فإذا علمت ذلك أيها الأخ الشفيق فلا تخالل إلا من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله، وذلك هو الفقير المتجرد عن السوى المقبل على المولى فليست اللذة إلا في مخاللته، ولا السعادة إلا في خدمته ومصاحبته، فلذا قال الشيخ العارف الوارث المتمكن أبو مدين رضي الله عنه:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

أي ما لذة عيش السالك في طريقه إلى مولاه إلا صحبة الفقراء، والفقراء: جمع فقير وهو المتجرد عن العوائق الذي لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه وتحقق بحقيقة: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. فمثل هذا بمصاحبته يُذيقك لذة الطريق ويريق في صميم فؤادك من شراب القوم أهنئ رحيق، ويعرفك الطريق ويقطع بك العقاب ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بهمته ويرفعك إلى أعلى الدرجات، ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة والسيد عند أهل الطريقة والأمير عند أهل البصيرة، فلا تخالف أيها السالك طريقه واجتهد

أيها السالك المجدّ في تحصيل هذا الرفيق، واصحبه وتأدب في مجالسته كيما يزيل عنك ببركة صحبته كل تعويق كما قال ﷺ:

فاصحبهم وتأدب في مجالستهم وخلِّ حظك مهما قدّموك ورا

أي اصحب الفقراء وتأدب معهم في مجالستهم فإن الصحبة شبح، والأدب روحها، فإذا جمعت بين الشبح والروح حزت فائدة الصحبة وإلا كانت ميتة، فأي فائدة ترجوها من الميت؟ ومن أهم آداب الصحبة: هو أن تخلّف حظوظك وراءك، ولا تكن همتك منصرفة إلا لامتثال أوامرهم، فعند ذلك تشكر مسعاك، فإذا تخلّقت بذلك فبادر واغتنم الحضور وأخلص في ذلك ترتفع درجتك وتعلُ همتك عن الحور والقصور كما قال ~:

واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم واعلم بأن الرِّضا يختصُّ من حضرا

أي واستغنم وقت صحبة الفقراء واحضر دائمًا معهم بقلبك وقالبك تسْرِ إليك فوائدهم وتغمرك فرائدهم وينصلح ظاهرك بالتأدب بآدابهم ويشرق باطنك بالتجلي بأنوارهم، فإن من جالس جانس، فإن جلست مع المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سررت، وإن جلست مع الغافلين سَرتْ إليك الغفلة، وإن جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك وسرتْ إليك اليقظة، فإنهم القوم لا يشقى جليسهم فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم..؟ وما أحسن ما قيل:

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

واعلم بأن هذا الرضا وهذا المقام يختص بمن حضر معهم بالتأدب والانكسار، والخروج عن نفسه والتحلي بالذلة والافتقار، فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم وانطرح وانكسر إذا حللت بناديهم، فعند ذلك تذوق لذة الحضور واستعن على ذلك بملازمة الصمت تشرق عليك أنوار الفرح ويغمرك السرور، كما قال ﷺ:

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

الصمتُ أصلُ الطريق وأساسه، ومن لازمه ارتفع بنيانه وتمّ غراسه. وهو نوعان: صمت باللسان، وصمت بالجنان. وكلاهُما لا بدّ منه في الطريق. فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه ونطق قلبه خف وزره، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلّى له سره وكلمه ربه، وهذا غاية الصمت، وكلام الشيخ قابل لذلك كله.

فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سئلت، فإن سئلت فارجع إلى أصلك ووطنك وقل: (لا علم عندي). واستتر بالجهل تشرق لك أنوار العلم اللّدني، فإنك كلما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلك لاحت لك معرفة نفسك. فإذا عرفتها عرفت ربك، كما روي في الحديث: «من عرف نفسه عرف ربه».

وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه. وما أحسن ما قيل:

لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبي ونقصاني
فإن رضيتم فيا عزي ويا شرفي وإن أبيتم فمن أرجو لعصياني؟

فانهض أيها الأخ إلى باب مولاك بهمةٍ عاليّةٍ وتحقق بعبوديتك تشرق عليك أوصافه السنيّة. كما أشار إلى ذلك الشيخ ﷺ بقوله:

ولا تـرَ العيـب إلا فيـك معتقـدًا عيبًـا بـدا بينًـا لكنـه اسـتترا

أي تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك فإذا تحققت بأوصافك وشهدت نفسك هذا الشهود رأيت نفسك كلها عيوبًا لكنها مستترة، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك، كما قال في الحكم: سبحان من سَتَرَ سِرَّ الخصوصية بظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية.

وافهم من هنا سرّ معنى قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾. [الإسراء: ١]. ولم يقل برسوله ولا بنبيه إشارةً إلى أن هذا المعنى الرفيع الذي لا ينال إلا من طريق العبودية، ولذلك قيل:

لا تـــدعني إلا بيـــا عبـــدها فإنـــه أشـــرف أســـمائي

فانكسر أيها الأخ وانطرح بالطريق، ولا ترَ لك حالًا ولا مقامًا يزل عنك كل تعويق، واستغفر من كل خطرة تخطر بقلبك في عبوديتك، وقم على قدم الاعتراف وأنصف من نفسك تبلغ درجة المنازل وتَفنَى بشريتك، كما قال ﷺ:

وحط رأسك واستغفر بلا سبب وقم على قدم الإنصاف معتذرا

أي تواضع وانكسر وحط أشرف ما عندك وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض لتحوز مقام القرب.

كما ورد: «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد». لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته.

واشهد نفسك دائمًا مذنبًا ولو لم يظهر عليك سبب الذنب، فإن العبد لا يخلو من تقصير، وقم على قدم الإنصاف معتذرًا من ذنوبك، خجلًا من سيئاتك وعيوبك؛ فإن من عامل صاحبه المخلوق هذه المعاملة أحبه ولم يشهد له ذنبًا وكانت مساويه عنده محاسن. فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقي الذي إذا حققت ليس لك صاحب سواه.

كما ورد في الحديث: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ والْوَلَدِ». [صحيح مسلم وموطأ مالك].

فتأدب أيها الأخ بهذه المعاملة مع إخوانك الفقراء لتصير لك معراجًا تتوصل بها إلى معاملة رب السماء، فتكون مقبولًا عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة، وتشرق عليك أنوار الحقائق. قال ﷺ:

وإن بدا منك عيبٌ فاعتذر وأقم ... وجه اعتذارك عما فيك منك جرى
قل عبيدكم أولى بصفحكم ... فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا
هم بالتفضل أولى وهو سيمتهم ... فلا تخف دركًا منهم ولا ضررا

أي ليكن شأنك دائمًا التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار، سواء وقع منك ذنبٌ أولم يقع. وإن بدا منك عيبٌ أو ذنبٌ فاعترف واستغفر، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وليس الشأن ألّا تذنب إنما الشأن ألّا تصر على الذنب، كما ورد: «أنين المذنبين أفضل عند الله من زجل المسبحين». لما في أنين المذنبين من الذلة والانكسار، وربما خالط زجل المسبحين شيء من العجب والافتخار.

فلذلك قال في الحكم:

ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب وكان سببًا للوصول.

ربّ معصية أورثت ذلًا وانكسارًا، خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.

ومع اعترافك واستغفارك أقم وجه اعتذارك عمّا جرى منك فيكون ذلك أمحى للذنب وادخل في القبول.

وتذلّل وتواضع وانكسر وقل عُبيدكم أولى بصفحكم، لأن العبد ليس له إلا باب مولاه، وما أحسن ما قيل:

ألقيت في بابكم عناني ولم أبالي بما عناني
فزال قبضي وزاد بسطي وانقلب الخوف بالأماني

فسامحوا عبيدكم يا فقرا وخذوا بالرفق وعاملوني فإني عبد فقير لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي إلا على الفضل، لا بحولي وقوتي، ومذهبي العجز والسلام.

ثم قال رضي الله عنه:

إنهم أولى بهذه الشيم، وهي شيمتهم، ولم يزالوا متفضلين. وهكذا **معاملتهم مع أصحابهم وهي سجيّتهم، وكيف لا تكون لهم سجية وهم متخلقون** بأخلاق مولاهم. كما ورد: «تخلّقوا بأخلاق الله».

فلا تخف منهم ضررًا أيها السالك المصاحب لهم، وتمسك بأذيالهم فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فإذا عرفت ذلك أيها السالك فتخلّق

بأخلاقهم الكريمة، وجد بالتغني على الإخوان وغضّ الطرف عن عثرتهم، تكن آخذًا من أوصافهم أحسن شيمة. قال ﷺ:

وبالتفتي على الإخوان جد أبدًا حسًا ومعنى وغض الطرف إن عثـــــــــــــــــــــــــرا

أي وتكرّم على إخوانك أيها السالك وجُد عليهم دائمًا: إما في الحس فببذل الأموال، وإما في المعنى فبموهبة الأحوال. ولا تبخل عليهم بشيء مما يمكنك إيصاله إليهم فإن السماحة لبّ الطريق، ومن تخلّق بها فقد أزال عن قلبه كل تعويق.

قال الشيخ عبد القادر ﷺ: ما وصلت إلى الله تعالى بقيام ليل ولا صيام نهار ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصدر.

فدلّ كلام الشيخ ﷺ أن الكرم هو الأساس وأن التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا تم له هذان الأمران سلم صدره من العلائق وزال عن طريقه كل عائق. ولذلك ورد في الحديث: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ». [سنن الترمذي].

فتأمل يا أخي هذا الحديث حيث بدأ ، بإلانة الكلام وهو إشارة إلى التواضع، ثم ثنّى بإطعام الطعام وهو إشارة إلى الكرم، ثم أتى بعد ذلك بالصلاة والصيام فدل على ما أشار إليه الشيخ عبد القادر قدس الله سره، فانهض يا أخي إلى هذه المكارم وبادر واجمع معها حسن مكارم الأخلاق، وغض الطرف عن مساوئ الإخوان، (أي وإن وقعت منهم عثرة). ولا تشهد إلا

محاسنهم. كما قال ﷺ في حكمه الفتوحية: رؤية محاسن العبيد والغيبة من مساوئهم ذلك من كمال التوحيد، كما قيل:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلًا رأيت جميع الكائنات ملاحا

فإذا تخلقت أيها الأخ بهذه الأخلاق الشريفة فقد تأهلت للإقبال على الشيخ، فانهض إلى عتبة بابه وراقبه بهمةٍ منيفةٍ، كما أشار إلى ذلك الشيخ ﷺ بقوله:

وراقب الشيخ في أحواله يرى عليك من استحسانه أثرا فعسى

أي فإذا تخلقت بما تقدم من الآداب ووصلت بافتقارك وانكسارك إلى الشيخ وتمسكت بثرى تلك الأعتاب، فراقب أحواله واجتهد في حصول مراضيه وانكسر واخضع في كل حين، فإنك ترى الترياق والشفاء فيه، وإن قلوب المشايخ ترياق الطريق. ومن سعد بذلك تم له المطلوب وتخلص من كل تعويق. فاجتهد أيها الأخ في تشييد هذا المعنى فعسى يرى عليك من استحسانه لحالك أثرًا، ومعنى قول بعضهم: من أشد الحرمان أن تجتمع بأولياء الله تعالى ولا ترزق القبول منهم. وما ذلك إلا لسوء الأدب. وإلا فلا بخل من جانبهم ولا نقص من جهتهم. كما قال في الحكم: ليس الشأن أن ترزق الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب. واجتهد أن تسلك أحسن المسالك. وخذ ما عرفت بجدٍ واجتهاد وانهض في خدمته وأخلص في ذلك تسد مع من ساد. كما قال ﷺ:

وقدم الجد وانهض عند خدمته عساه يرضى وحاذر أن تكن ففي رضاه رضا الباري وطاعته ضجرَا

يرضى عليك وكن من تركها
حـــــــــــــــــــــــــــذرَا

أي انهض في خدمة الشيخ بالجد والاجتهاد فعساك تحوز رضاه فتسود مع من ساد، واحذر أن تضجر ففي الضجر الفساد، ولازم أعتاب بابه في الصباح والمساء لتحوز منه الوداد. وما أحسن ما قيل:

اصبر على مضض الإدلاج بالسحر ... وللغدوّ على الطاعات في البكر
إني وجدت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يؤمله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فإذا ظفرت أيها السالك برضاه رضي الله تعالى عنك ونلت فوق ما تتمناه فاستقم أيها الأخ في رضا شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته. فعض يا أخي بالنواجذ على خدمة الشيخ إن ظفرت بالوصول إليه.

واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك إن عرّفك الله تعالى وأطلعك عليه، فإن الظفر لا سيما في هذه الأيام أعز من الكبريت الأحمر. فإن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها كما ترى، لكن إذا ساعدتك العناية وظفرت به شممت من نفحة طيّبة ما يفوق المسك الأذفر، ولذلك قال رضي الله عنه:

واعلم بأن طريق القوم دارسة ... وحال من يدعيها اليوم كيف
متى أراهم وأنى لي برؤيتهم ... تـــــــــــــــــــــــرى
من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم ... أو تسمع الأذن مني عنهم خبرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... على موارد لم ألف بها كدرا
بمهجتي وخصوصًا منهم نفرا

شرع الشيخ رضي الله عنه يشوق السالكين إلى الطريق وأهله، ويخبرهم

أن طريقهم دارسة وحال من يدعيها اليوم كما ترى في هذه الفترة، حتى كادت الهمم تكون من المطلب آيسة. وهكذا شأن طريق القوم لعزتها كأنها في كل عصر مفقودة، ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد وهذه سنة معهودة، وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته يحكم بأنه ليس بموجود. فالطريقة وأهلها مخفية في العالم كخفاء ليلة القدر في شهر رمضان، وكخفاء ساعة الجمعة في يومها، حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان، لكن من جدّ وجد، ومن قرع بابًا وَلَجَّ ولج.

قال ابن عطاء الله ﷺ: بعد أن ذكر ما لا بدّ من الشيخ في الطريق على سبيل السؤال والجواب، كيف تأمر بذلك وقد قيل: إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر أو كالعنقاء. فمن ذا الذي بوجودها يظفر كيف تأمرني بتحصيل من هذا شأنه؟ فقال: لو صدقت في الطلب، وكنت في طلبه كالطفل في طلب مرضعته، أو كالظمآن في طلب الماء، لظفرت بالشيخ. فإن الطفل والظمآن لا يقرّ بهم قرار ولا تسكن لوعتهم حتى يظفروا بمقصودهم. فأشار ﷺ إلى أن الشيخ موجود وكيف لا يكون موجودًا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله، فإن العالم شبح والأولياء روحه، فما دام العالم موجودًا لا بد من وجودهم، لكن لشدة خفائهم وعدم ظهورهم حُكِمَ بفقدانهم. فاجتهد أيها الأخ واصدق في الطلب تجد المطلوب، واستعن على ذلك الطلب بالمدد من علام الغيوب، فإن هذا الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله.

وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه، كما قال في الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصل إليه.

ثم إن الشيخ ﷺ لما ذكر عدة الطريق وفقدان أهلها، شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه، ويستبعد من نفسه حصول ذلك والتشرف بلقياه، تواضعًا منه وانكسارًا وهضمًا لنفسه واحتقارًا، ولذلك قال بعد ذلك: (من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم...) الخ.

وهكذا شأن العارف بنفسه الممتلئ من معرفة ربه المتحلي بواردة قدسه، لأنه لا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا بل يرى نفسه أقل من كل شيء، وهذا هو النظر التام كما قيل:

إذا زاد علـــم المـــرء زاد تواضـــعًا وإن زاد جهـــل المـــرء زاد ترفعـــا

وفي الغصن من حمل الثمـار مثالـه وإن يعـر عـن حمـل الثمـار تمنعـا

فانظر يا أخي إلى الشيخ أبي مدين ورفعته إلى الطريق، كما قيل: إنه وصل من تحت تربيته اثنا عشر ألف مريد، وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار، حتى أنه لم يرَ نفسه أهلًا للاجتماع بأهل الطريق، ولا يزيده هذا الانخفاض إلا ارتفاعًا، كما أن الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها إلا ارتفاعًا في رأسها. فتواضع أيها الأخ في الطريق وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق. ثم قال ﷺ بعد ذلك: (أحبهم.. إلى آخره). أي إنّي وإن لم أكن منهم فإني أحبهم ومن أحب قومًا فهو منهم. كما ورد في الحديث: >الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ<. [صحيح البخاري وصحيح مسلم].

وكما قيل:

أحـب الصـالحين ولسـت مـنهم لعلـــي أنـــال بهـــم شـــفاعه

وأكـره مَـنْ بضـاعته المعاصـي وإن كنـا سـواء فـي البضـاعه

وهذا أيضًا منه ﷺ من تمام التنزل السابق وتكميلًا وتتميمًا

لهذا التواضع، الذي لم يلحق جواد شرفه في ميدانه لاحق ـ نفعنا الله ببركاته ووفقّنا لشيمة من معاملاته ـ لأن هذه خصال القوم وصفاتهم ولذلك ارتقت رتبهم وجزلت عطياتهم كما وصفهم ﷺ بقوله:

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا ... يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرقًا ... حسن التألّف منهم راقني نظرا
هم أهل ودي وأحبابي الذين هم ... ممن يجرّ ذيول العز مفتخرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعًا ... وذنبنا فيهم مغفورًا ومغتفرا
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... محمد خير من أوفى ومن نذرا

أي هم قومٌ سجاياهم كريمة وهمتهم عظيمة، حيثما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة، وأينما توجهوا تسطع شمس معارفهم فتشرق في القلوب وتصلح بهم الدنيا والآخرة. يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرقًا مجيدة، فتدله على الطريق وتسير به في سلوكه سيرة مجيدة.

فلذلك جمعوا حسن التألف حتى راق كل ناظر وحوى كل معنى لطيف، حتى اكتحلت بمكاحل إثمدهم أنوار البصائر، ولذا قال الشيخ ~ بعد ذلك: (هم أهل ودي وأحبابي...) إلى آخره. فإن الشخص لا يحب إلا من جانسه، ولا يود إلا من كان بينه وبينه مؤانسة. وفي هذا الكلام إشارة إلى أنه ~ من جملتهم وطيبه من طيبهم، وطينته من طينتهم، وما تقدم منه في التواضع والانكسار دليل على التحقيق بهذا المجد والفخار، كما تقدمت الإشارات إلى ذلك. فنسأل الله تعالى أن يسلك بنا أحسن هذه المسالك.

ثم إنه دعا وسأل أن لا يزال شمله مجتمعًا بهم في الله تعالى وذنبه مغفورًا ومغتفرًا.

ونحن نسأله تعالى أيضًا إياه ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار، وعلى آله وأصحابه الأبرار والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم القرار.

وهذا آخر عجالة الوقت لمن تعطش من معاني هذه الأبيات وإلا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن حقائقها. (وإنما الأعمال بالنيات).

والحمد لله رب العالمين

عنوان التوفيق في آداب الطريق

النظم لأبي مدين شعيبٍ المغربي المتوفى سنة 580 للهجرة.

والشرح لابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 707 للهجرة.

قال الشيخ العارف القدوة المحقق تاج العارفين ولسان المتكلمين، إمام وقته، ووحيد عصره، تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري ﵁. ونفعنا به آمين.

الحمد لله المنفردِ بالخلق والتدبير، الواحدِ في الحكم والتقدير، الملك الذي ليس في ملكه وزير، المالكِ الذي لا يخرج عن ملكه صغيرٌ ولا كبير، المتقدسِ في كمالٍ عن الشبيه والنظير، المنزهِ في كمال ذاته عن التمثيل والتصوير، **العليمِ الذي لا يخفى عليه ما في الضمير**: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. [الملك: ١٤]. **العالمِ الذي أحاط علمه بمبادئ الأمور** ونهايتها، السميعِ الذي لا فضل في سمعه بين ظاهر الأموات وخفاياتها، الرازقِ وهو المنعم على الخليقة بإيصال أقواتها، القيومِ المتكفل بها في جميع حالاتها، الوهّابِ وهو الذي منَّ على النفوس بوجود حياتها، القديرِ وهو المعيد لها **بوجود وفاتها، الحسيبِ وهو المجازي لها يوم قدومها عليه بحسناتها** وسيئاتها.

فسبحانه من إلهٍ منّ على العباد بالجود قبل الوجود، وقام بهم بأرزاقهم على كلتا حالاتهم من إقرار وجحود، ومدّ كل موجودٍ بوجود عطائه، وحفظ وجود العالم بإمداد بقائه، وظهر

بحكمته في أرضه وقدرته في سمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد مفوض لقضائه مسلّم له في حكمته وإمضائه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المفضل على جميع أنبيائه، المخصوص بجزيل فضله وعطائه، الفاتح الخاتم وليس ذلك لسوائه، الشافع لكل العباد حين يجمعهم الحقّ لفصل قضائه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المستمسكين بولائه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

اعلم أخي جعلك الله من أهل حبه، وأتحفك بوجود قربه، وأذاقك من شراب أهل ودّه، وأمّنك بدوام وصلته من إعراضه وصده، ووصلك بعباده الذين خصّهم: بمراسلاته، وجبر كسر قلوبهم، لما علموا أنه لا تدركه الأبصار لنور تجلياته، وفتح لهم رياض القرب وهبّ منها على قلوبهم واردات نفحاته، أشهدهم سابق تدبيره فيهم فسلموا إليه القياد، وكشف عن خفي لطفه في منعه فتركوا المنازعة والعناد، فهم مستسلمون إليه ومتوكلون عليه.

أمّا بعد: فقد قال ‘: >يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل<. فإذا علمت أيها الأخ الشقيق فلا تخالل إلا من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله، ذلك هو الفقير المتجرد عن السوى، المقبل على المولى. فليست اللذة إلا مخاللته، ولا السعادة إلا خدمته ومصاحبته، فلذلك قال الشيخ العالم المتمكن أبو مدين ﷺ:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

أي ما لذة العيش السالك في طريق مولاه إلا صحبة الفقراء، والفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن العلائق، المعرض عن العوائق، لم يبقَ له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى وقد أعرض عن كل شيء سواه وتحقق

بحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فمثل هذا مصاحبته تذيق لذة الطريق، وتريق في جميع فؤادك من شراب القوم أهنى رحيق، ويعرّفك الطريق، ويقطع لك العقاب ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بهمته **ويرفعك إلى أعلى الدرجات ومن كان ذلك فهو السلطان على الحقيقة**، والسيد على أهل الطريقة، والأمير على أهل البصيرة.

فلا تخالف أيها السالك طريقه فاجتهد أيها السالك المجد في تحصيل هذا الرفيق، واصحبه وتأدب في مجالسه فيزيل عنك ببركته وصحبته كل تعويق، كما قال ﷺ:

فاصحبهمُ وتأدب في مجالسهم وخلّ حظك مهما قدموك ورا

أي اصحب الفقراء وتأدب في مجالسهم فإن الصحبة شبحٌ والأدب روحها، فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حزت فائدة صحبته وإلا كانت صحبتك ميتة، فأي فائدة ترجوها من الميت. ومن أهم أدب الصحبة أن تخلف حظوظك وراءك ولا تكن همتك مصروفةً إلا لامتثال أوامرهم، فعند ذلك يشكر مسعاك فإذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور وأخلص في ذلك ترفع درجتك وتعلو همتك عن الحور والقصور. كما قال ﷺ:

واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

أي واستغنم وقت صحبة الفقراء، واحضر دائمًا معهم بقلبك وقالبك تسري إليك زوائدهم، وتغمرك فوائدهم، وينصلح ظاهرك بالتأدب بآدابهم، ويشرق باطنك بالتحلي بأنوارهم، فإن من جالس جانس، فإن جلست مع

المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سررت، وإن جلست مع الغافلين سرتْ إليك الغفلة، وإن جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك وسرتْ إليك اليقظة. فإنهم القوم لا يشقى جليسهم، فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم؟ وما أحسن ما قيل:

لـــي ســـادة مـــن عـــزهم أقـــدامهم فـــوق الجبـــاه
إن لـــم أكـــن مـــنهم فلـــي فـــي حـــبهم عـــزٌ وجـــاه

واعلم أن هذا الرضا وهذا المقام يخصّ من حضر معهم بالتأدب. وخرج عن نفسه وتحلى بالذل والانكسار. فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم وانطرح وانكسر إذا حللت بناديهم. فعند ذلك تذوق لذة الحضور واستعن على ذلك بملازمة الصمت تشرق لك أنوار الفرح ويغمرك السرور كما قال رضي الله عنه:

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

الصمت عند أهل الطريقة من لازمه ارتفع بنيانه، وتمّ غراسه. وهو نوعان: صمت باللسان، وصمت بالجنان. وكلاهما لا بدّ منه في الطريق.

فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلّى له سره وكلمه ربه، وهذا غاية الصمت. وكلام الشيخ قابل لذلك.

فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سئلت، فإن سئلت فارجع إلى أصلك ووصلك، وقل: لا علم عندي. واستتر بالجهل تشرق لك أنوار العلم اللّدني. فإنك كلما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلك لاحت لك معرفة نفسك، فإذا عرفتها عرفت ربك. كما

روي في الحديث: >من عرف نفسه عرف ربه«. وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه. فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه. وما أحسن ما قيل:

لاأبرح الباب حتى تصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبي ونقصاني
فإن رضيتم فيا عزي ويا شرفي وإن أبيتم فمن أرجو لعصياني؟

فانهض أيها الأخ إلى باب مولاك بهمة عليّة وتحقق بعبوديتك تشرق عليك أنواره السنيّة. كما أشار إلى ذلك الشيخ ﷺ بقوله:

ولا ترى العيب إلا فيك معتقدًا عيبًا بدا بينًا لكنه استترا

أي تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك، فإذا تحققت بأوصافك وشهدت لنفسك عيوبًا لكنها مستترة، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك.

سبحان من سَتَرَ سِرَّ الخصوصية بظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية.

وافهم من هنا سرّ معنى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. ولم يقل برسوله ولا بنبيه أشار إلى ذلك المعنى الرفيع الذي لا يُنال إلا من العبودية ولذلك قيل:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

فانكسر أيها الأخ وانطرح بالطريق ولا تر لك حالًا. ولا مقالًا يزُلُ عنك كل تعويق، واستغفر من كل ما يخطر بقلبك في عبوديتك وقم على قدم الاعتراف، وأنصف من نفسك تبلغ أعلى درجات المنازل وتفنَ

بشريتك كما قال ﷺ:

وحط رأسك واستغفر بلا سبب وقم على قدم الإنصاف معتذرا

أي تواضع وانكسر وحط أشرف ما عندك وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض لتحوز مقام القرب. كما ورد في الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ». [صحيح مسلم]. لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته. واشهد نفسك دائمًا مذنبًا. ولو لم يظهر عليك سبب الذنب. فإن العبد لا يخلو من تقصير. وقف على قدم الإنصاف من ذنوبك خجلًا من سيئاتك وعيوبك. فإن من عامل المخلوق هذه المعاملة أحبه ولم يشهد له ذنبًا وكانت مساوية عنده محاسن. فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقي الذي إذا تحققه ليس له صاحب سواه، كما ورد في الحديث: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل المال والولد».

فتأهب أيها الأخ هذه المعاملة مع إخوانك الفقراء لتصير لك معراجًا تتوصل بها إلى معاملة رب السماء. وتكون مقبولًا عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة. وتشرق عليك أنوار الحقائق. قال ﷺ:

وإن بدا منك عيب فاعتذر وأقم وجه اعتذارك عما فيك منك جرى
قل عبيدكموا أولى بصفحكموا فسامحوا وخذوا بالرفق يافقرا
هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم فلا تخف دركًا منهم ولا ضررا

أي ليكن شأنك دائمًا التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار، سواء وقع منك ذنبٌ أو لم يقع. وإن بدا منك عيبٌ أو ذنبٌ فاعترف واستغفر، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وليس الشأن ألّا تذنب إنما الشأن ألّا تصر على الذنب، كما ورد: «أنين المذنبين أفضل عند الله من زجل المسبحين». لما في أنين المذنبين من الذلة والانكسار، وربما خالط زجل المسبحين شيء من العجب والافتخار.

فلذلك قال في الحكم:

ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب وكان سببًا للوصول.

ربّ معصية أورثت ذلًا وانكسارًا، خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.

ومع اعترافك واستغفارك أقم وجه اعتذارك عمّا جرى منك فيكون ذلك أمحى للذنب وأدخل في القبول.

وتذلّل وتواضع وانكسر وقل: عُبيدكم أولى بصفحكم، لأن العبد ليس له إلا باب مولاه، وما أحسن ما قيل:

ألقيت في بابكم عناني ... ولم أبالي بما عناني
فزال قبضي وزاد بسطي ... وانقلب الخوف بالأماني

فسامحوا عبيدكم يا فقرا وخذوا بالرفق وعاملوني فإني عبد فقير لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي إلا على الفضل، لا بحولي وقوتي، ومذهبي العجز والسلام.

ثم قال رضي الله عنه:

إنهم أولى بهذه الشيم، وهي شيمتهم، ولم يزالوا متفضلين. وهكذا معاملتهم مع أصحابهم وهي سجيّتهم، وكيف لا تكون لهم سجية وهم

متخلقون بأخلاق مولاهم. كما ورد: «تخلّقوا بأخلاق الله».

فلا تخف منهم ضررًا أيها السالك المصاحب لهم، وتمسك بأذيالهم فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فإذا عرفت ذلك أيها السالك فتخلّق بأخلاقهم الكريمة، وجد بالتغني على الإخوان وغضّ الطرف عن عثرتهم، تكن آخذًا من أوصافهم أحسن شيمة. قال رضي الله عنه:

وبالتفتي على الإخوان جد أبدًا حسًا ومعنًى وغض الطرف إن عثـــــــــــــــــــــــــــــــرا

أي وتكرّم على إخوانك أيها السالك وجُد عليهم دائمًا: إما في الحس فببذل الأموال، وإما في المعنى فبموهبة الأحوال. ولا تبخل عليهم بشيء مما يمكنك إيصاله إليهم فإن السماحة لبّ الطريق، ومن تخلّق بها فقد أزال عن قلبه كل تعويق.

قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: ما وصلت إلى الله تعالى بقيام ليل ولا صيام نهار ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصدر.

فدلّ كلام الشيخ رضي الله عنه أن الكرم هو الأساس وأن التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا تم له هذان الأمران سلم صدره من العلائق وزال عن طريقه كل عائق. ولذلك ورد في الحديث: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ». [سنن الترمذي].

فتأمل يا أخي هذا الحديث حيث بدأ ، بإلانة الكلام وهو إشارة إلى التواضع، ثم ثنّى بإطعام الطعام وهو إشارة إلى

الكرم، ثم أتى بعد ذلك بالصلاة والصيام فدل على ما أشار إليه الشيخ عبد القادر قدس الله سره، فانهض يا أخي إلى هذه المكارم وبادر واجمع معها حسن مكارم الأخلاق، وغض الطرف عن مساوئ الإخوان، (أي وإن وقعت منهم عثرة). ولا تشهد إلا محاسنهم. كما قال ﷺ في حكمه الفتوحية: رؤية محاسن العبيد والغيبة من مساوئهم ذلك من كمال التوحيد، كما قيل:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلًا رأيت جميع الكائنات ملاحًا

فإذا تخلقت أيها الأخ بهذه الخصال الشريفة فقد تأهلت للإقبال على الشيخ، فانهض إلى عتبة بابه وراقبه بهمة منيفة. كما أشار إلى ذلك الشيخ ﷺ بقوله:

وراقب الشيخ في أحواله يرى عليك من استحسانه
فعسى أثرا

أي إذا تخلقت بما تقدم من الآداب ووصلت بافتقارك وانكسارك إلى الشيخ، وتمسكت بأثر تلك الأعتاب فراقب **أحواله،** واجتهد في حصول مراضيه، وانكسر واخضع في كل حين فإنه الترياق والشفاء، وإن قلوب المشايخ ترياق الطريق، ومن سعد بذلك تم له المطلوب وتخلص من كل تعويق. واجتهد أيها الأخ في مشاهدة هذا المعنى فعسى يرى عليك من استحسانه لحالك أثرًا. قال بعضهم: (من أشد الحرمان أن تجتمع مع أولياء الله تعالى ولا ترزق القبول منهم). وما ذلك إلا لسوء الأدب منك. وإلا فلا بخل من جانبهم، ولا نقص من جهتهم، كما قيل في الحكم: ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تورث حسن الأدب.

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد ﷺ وقال: هل هناك أحد ممن

اجتمع بأبي يزيد؟ فأشير إلى شيخ كبيرٍ في السن كان حاضرًا هناك فقال له: هل سمعت شيئًا من كلامه؟ قال نعم، قال من زارني لا تحرقه النار. فاستغرب السلطان ذلك الكلام. فقال كيف يقول أبو زيد ذلك وأبو جهل رأى النبي ﷺ وهو يحرق بالنار. فقال ذلك الشيخ للسلطان، أبو جهل لم يرَ النبي ﷺ إنما رأى يتيم أبي طالب ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار. ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه. إنه لم يره بالتعظيم والإكرام واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار، ولكنه رآه باحتقار واعتقاد أنه يتيم أبي طالب، فلم تنفعه تلك الرؤية. وأنت يا أخي لو اجتمعت بقطب الوقت، ولم تتأدب لم تنفعك تلك الرؤية، بل كانت مضرتها عليك أكثر من منفعتها. إذا فهمت ذلك أيها السلك فتأدب بين يدي الشيخ، واجتهد أن تسلك أحسن المسالك. وخذ ما عرفت بجدٍ واجتهاد، وانهض في خدمته، واخلص في ذلك لتسود مع من ساد. كما قال رضي الله عنه:

وقدم الجد وانهض عند خدمته عساه يرضى وحاذر أن تكن
ففي رضاه رضى الباري ضجرا
وطاعته يرضى عليك فكن من تركه حذرا

أي وانهض في خدمة الشيخ بالجد فعساك تحوز رضاه فتسود مع من ساد، واحذر أن تضجر ففي الضجر الفساد، ولازم أعتاب بابه في الصباح والمساء لتحوز منه الوداد. وما أحسن ما قيل:

اصبر على مضض الإدلاج وللنذور على الطاعات بالبكر
في السحر ما استصحب الصبر إلا فاز
وقل من جد في أمر يؤمله بالظفر

فإن ظفرت أيها السالك برضاه يرضى الله تعالى عنك، ونلت فوق ما

تمنيت. فاستقم أيها الأخ في رضا شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته. فعض أيها الأخ بالنواجذ على خدمة الشيخ إن ظفرت بالوصول إليه، واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك إذا عرّفك الله تعالى به. وأطلعك تعالى عليه، فإن الظفر به لا سيما في هذه الأيام أعز من الكبريت الأحمر. واعلم أن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها كما ترى، لكن إذا ساعدتك العناية ظفرت وشممت منه نفحة طيّبة ما يفوق المسك الأذفر ولذلك قال ﷺ ونفعنا به. آمين:

واعلم بأن طريق القوم دراسة ... وحال من يدعيها اليوم كيف ترى
متى أراهم وأنى لي برؤيتهم ... أو تسمع الأذن منهم خبرا
من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم ... على موارد لم ألف لها كدرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... بمهجتي وخصوصًا منهم نفرا

شرع الشيخ ﷺ يشوق السالكين إلى الطريق وأهله، ويخبرهم أن طريقهم دارسة وحال من يدعيها اليوم كما ترى في هذه الفترة، حتى كادت الهمم تكون من المطلب آيسة. وهكذا شأن طريق القوم لعزتها كأنها في كل عصر مفقودة، ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد وهذه سنة معهودة، وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته يحكم بأنه ليس بموجود. فالطريقة وأهلها مخفية في العالم كخفاء ليلة القدر في شهر رمضان، وكخفاء ساعة الجمعة في يومها، حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان، لكن من جدّ وجد، ومن قرع بابًا وَلَجَّ ولج.

قال ابن عطاء الله ﷺ بعد أن ذكر أنه لا بدّ من الشيخ في الطريق على سبيل السؤال والجواب، كيف تأمر بذلك وقد قيل: إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر أو كالعنقاء. فمن ذا الذي بوجودها يظفر كيف تأمرني

بتحصيل من هذا شأنه؟ فقال: لو صدقت في الطلب، وكنت في طلبه كالطفل في طلب مرضعته، أو كالظمآن في طلب الماء، لظفرت بالشيخ. فإن الطفل والظمآن لا يقرّ بهم قرار ولا تسكن لوعتهم حتى يظفروا بمقصودهم. فأشار ﷺ إلى أن الشيخ موجود وكيف لا يكون موجودًا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله، فإن العالم شبح والأولياء روحه، فما دام العالم موجودًا لا بد من وجودهم، لكن لشدة خفائهم وعدم ظهورهم حُكِمَ بفقدانهم. فاجتهد أيها الأخ واصدق في الطلب تجد المطلوب، واستعن على ذلك الطلب بالمدد من علام الغيوب، فإن هذا الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله.

وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه، كما قال في الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصل إليه.

ثم إن الشيخ ﷺ لما ذكر عدة الطريق وفقدان أهلها، شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه، ويستبعد من نفسه حصول ذلك والتشرف بلقياه، تواضعًا منه وانكسارًا وهضمًا لنفسه واحتقارًا، ولذلك قال بعد ذلك: (من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم...) الخ.

وهكذا شأن العارف بنفسه الممتلئ من معرفة ربه المتحلي بواردة قدسه، لأنه لا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا بل يرى نفسه أقل من كل شيء، وهذا هو النظر التام كما قيل:

إذا زاد علم المرء زاد تواضعًا ... وإن زاد جهل المرء زاد ترفعا

وفي الغصن عن حمل الثمار مثاله ... فإن يعرو من حمل الثمار تمنعا

فانظر إلى الشيخ أبي مدين ورفعته في الطريق، مع أنه وصل من تربيته اثنا عشر ألف مريد. وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار، حتى أنه لم يرَ نفسه من أهل الاجتماع بأهل هذه الطريقة، ويزيده هذا الانخفاض من الارتفاع. لأن الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها إلا ارتفاعًا في رأسها.

فتواضع أيها الأخ في الطريق، وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق.

ثم قال ﷺ بعد ذلك: (أحبهم...) إلى آخره. أي وإن لم أكن أنا منهم فإني أحبهم، ومن أحب قومًا فهو منهم. كما ورد في الحديث: «المرء مع من أحب». كما قيل:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أنال بهم شفاعه
وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنا سواء في البضاعه

وهذا أيضًا منه ﷺ من تمام التنزل السابق، وتكميلًا وتتميمًا لهذا تواضع الذي لم يلحق جواد شرفه في ميدانه لاحق، نفعنا الله ببركاته، ووفقّنا من معاملاته. لأن هذه خصال القوم وصفاتهم ولذلك ارتفعت رتبهم. وجزلت عطيتهم. كما وصفهم ﷺ بقوله:

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا ... يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرَفًا ... حسن التألّف منهم راقني نظرا
هم أهل ودي وأحبابي الذين همُ ... ممن يجرّ ذيول العز مفتخرا
لازال شملي بهم في الله مجتمعًا ... وذنبنا فيهم مغفورًا ومغتفرا

ثـم الصـلاة علـى المختـار سـيدنا محمـد خيـر مـن أوفـى ومـن نـذرا

أي قومٌ سجاياهم كريمة وهمتهم عظيمة، حيثما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة. وأينما توجهوا تسطع شمس معارفهم فتشرق القلوب، وتصلح بهم الدنيا والآخرة، يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرفًا مجيدة تدل على الطريق، ويسير في سلوكه سيرة حميدة، فلذلك جمعوا أحسن تأليف، حتى راق كل ناظر وجدّوا في أكمل معنى لطيف، حتى اكتحلت بكحل إثمدهم أنوار البصائر، وكذلك **قال الشيخ** ﷺ **بعد ذلك (هم أهل ودي وأحبابي..) إلى آخره. فإن الشخص** لا يحب إلا من جانسه، ولا يود إلا من كان بينه وبينه مؤانسة.

وفي هذا الكلام إشارة إلى أنه ﷺ من جملتهم وطينته من طينتهم. وما تقدم منه في التواضع والانكسار دليل على التحقيق في هذا المجد والفخار، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. فنسأل الله تعالى أن يسلك بنا أحسن المسالك (ثم) دعا وسأل أنه لا يزال شمله مجتمعًا بهم في الله تعالى وذنبه مغفورًا. ونحن نسأله أيضًا إتمام الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار، خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار، وعلى آله وصحبه السادة الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

وهذا الرّقْم لمن تعطش ليله في معاني هذه الأبيات. وإلا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن معانيها و(إنما الأعمال بالنيات).

والله تعالى أعلم

الفهـرس

رجاء 6
المقدمة 7
التعريف بابن الميلق 10
التعريف بابن علان الصديقي الشاذلي 13
وقفات مهمة مع: 23
أولًا: السلوك 23
مراتب السلوك 26
مراتب النفس ومقاماتها 28
النفس والمفتاح والوارد 29
مرجع الطرق والطريق الواصلة 34
أنواع السلوك 38
أنواع السالكين 40
ثانيًا: السير 47
أنواع السير 48
رسائل الشيخ الأكبر ابن عربي 53
منازل القلوب 55
ثالثًا: الطريقة 59
الطريقة النقشبندية 62
طرق الوصول عند النقشبندية 63
الدوام على الذكر 64
ذكر الله (الآداب واللطائف) 64

اللطائف السبع 67
ذكر لا إله إلا الله 68
الوقوف القلبي 69
الوقوف العددي 70
المراقبة 71
طاعة المرشد 73
أوراد السادة النقشبندية 78
الورد العام 78
الورد الخاص 79
الختم عند السادة النقشبندية 81
الختم العام وأركانه 81
الختم الخاص 83
شجرة الطريقة النقشبندية 84
إجازة الشيخ النبهان ﵁ لشيخي محمد أديب حسون ﵁ 86
إجازة الشيخ محمد أديب حسون ﵁ للعبد الفقير 87
رابعًا: البيعة 88
بنود البيعة 88
أنواع البيعة 90
أقسام البيعة 93
البيعة العامة 93
البيعة الخاصة 94
خامسًا: المجاهدة 99
تعريفات المجاهدة 99

المجاهدة في الإسلام 99
صور من المجاهدات 107
المجاهدة عند الصوفية 110
حكم المجاهدة 112
طريقة المجاهدة 112
النبي ﷺ وصحابته الكرام 114
من أقوال العارفين في المجاهدة 116
أشد الجهاد 121
مجاهدة الاستقامة 123
الجهاد الأكبر 124
المجاهدة بالقلب 124
المجاهدة بالمال 125
المجاهدة بالنفس 125
مجاهدة البواطن 125
مجاهدة التقوى 125
المجاهدة عند الكاملين 125
مجاهدة الخواص 127
مجاهدة السرائر 127
مجاهدة الشيطان 127
مجاهدة الظاهر 127
مجاهدة العوام 128
مجاهدة الكشف والاطلاع 128
جهاد النفس 128

سادسًا: الرياضة 131
الفرق بين الرياضة والمجاهدة 131
الغاية من الرياضة 131
أنواع الرياضة 132
درجات الرياضة 132
منازل المحبة 133
سابعًا: السفر إلى حضرة علام الغيوب 133
لوازم مريد السفر 135
أنواع السفر 136
المسافر 144
احتياجات المسافر..... 144
شرح قصيدة ابن الميلق..... 146
قصيدة أبي مدين 196
تخميس قصيدة أبي مدين لسيدي ابن عربي 198
شرح ابن علان على قصيدة أبي مدين 202
عنوان التوفيق في آداب الطريق 215
الفهرس 229

** ** **